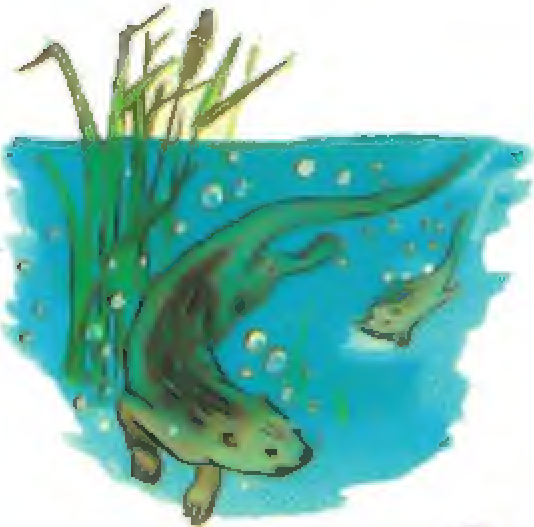
القصص العالمية

الرِّيحُ وَالصَّفْصَافُ











كِنِث غراهَم (١٨٥٩-١٩٣٢)

أَصْدَرَ في العامِ ١٨٩٥ كِتابَ «العَصْر الذَّهَبِيّ» الَّذي تَناوَل فيه حَياةَ الأَطْفالِ في الرّيفِ الإِنْجليزِيِّ، والَّذي لاقى نَجاحًا عَزَّ نَظيرُهُ. ثُمَّ أَصْدَرَ في العامِ ١٨٩٨ تَكْمِلَةً لِعَمَلِهِ ذاكَ في كِتابٍ عُنْوانُهُ: «أَيّامُ الحُلُمِ».

أَمّا كِتابُهُ «الرّيحُ والصَّفْصافُ» فَقَدْ أَصْدَرَهُ في العامِ ١٩٠٨ وأَرادَهُ كِتابًا للصِّغارِ مِنَ النّاسِ. ولاقى الكِتابُ، فِعْلًا، شَعْبِيَّةً واسِعَةً بَيْنَ الصِّغارِ لكِنَّهُ تَجاوَزَهُمْ أَيْضًا إلى الرّاشِدينَ الَّذينَ أَقْبَلوا عَلَيْهِ إِقْبالًا شَديدًا. وقَدْ رَأى النّاس في هذا المُؤَلَّفِ كِتابًا بالِغَ التَّشْويقِ يُصَوِّرُ طَبائعَ النَّفْسِ البَشَرِيَّةِ وأَلْوانَ الصِّراعِ الَّذي تُواجِهُهُ والرَّغَباتِ الَّتي تَتنازَعُها، كَما يُصَوِّرُ شَيْئًا مِنْ حَياةِ الحَيَوانِ ويَصِفُ جَمالَ الحَياةِ مَعَ الطَّبيعَةِ.

جَعَلَ المُؤَلِّفُ أَبْطالَهُ مِنَ الحَيَوانات، لكِنَّها حَيَواناتٌ تُمَثِّلُ، في حَقيقَةِ الأَمْرِ، صِفاتِ البَشَرِ وتَتَصَرَّفُ تَصَرُّفَهُم. لِذا تُخاطَبُ الشَّخْصِيّاتُ في الكِتابِ مُخاطَبَةَ العاقِلِ، زِيادَةً في إِعْطاءِ التَّأْثيرِ المَقْصودِ مِنْ أَحْداثِ القِصَّةِ، إِلّا عِنْدَما تُذْكَرُ لَفْظَةُ «حَيَوانات» نَصًّا، فتُخاطَبُ عِنْدَئِذٍ، حِرْصًا عَلى طَبيعَةِ الأُسْلوبِ العَرَبِيِّ، مُخاطَبَةَ غَيْرِ العاقِلِ.

سلسلة «القصص العالمّية»

١- جَزيرَةُ الكَنْز
٢- أُسْرَةُ روبِنْسُن السويسريَّة
٣- الحَديقَةُ السِّرِّيَّة
٤- رِحْلَةٌ إلى باطِنِ الأَرْضِ
٥- قِصَّةُ مَدينَتَيْن
٦- العالَمُ المَفْقود
٧- الفُرْسانُ الثَّلاثَة
٨- شَبَحُ باسْكِرْفيل
٩- كُنوزُ المَلِك سُلَيْمان
١٠- حَوْلَ العالَم في ثمانينَ يَوْمًا
١١- أُنْشودَةُ العيد
١٢- الرّيحُ والصَّفْصاف

القصص العالمية

الرِّيحُ وَالصَّفْصَافُ



إعداد: الدّكتور ألبير مُطْلَق
عن قصّة: كِنِث غراهَم
رسُوم: مارْتِن إيتْشِسُن

مكتبة لبنان

١ ضَفَّةُ النَّهْرِ

أَقامَ الخُلْدُ يَعْمَلُ جادًّا طَوالَ الصَّباحِ في طِلاءِ بَيْتِهِ طِلاءً كِلْسِيًّا (جِيرِيًّا) أَبْيَضَ تَعَوَّدَ أَنْ يَقومَ بِهِ في كُلِّ رَبيعٍ. وَقَدْ تَناثَرَتْ لَطَخاتُ الكِلْسِ عَلى جَسَدِهِ الفِرائِيِّ، وأَحَسَّ بِأَلَمِ التَّعَبِ في ظَهْرِهِ وساعِدَيْهِ.

الرَّبيعُ يَمْلأُ الدُّنْيا في الخارِجِ. وكانَ الخُلْدُ يَشْعُرُ في جُحْرِهِ المُعْتِمِ تَحْتَ الأَرْضِ بِالهَواءِ النَّقِيِّ ودِفْءِ أَشِعَّةِ الشَّمْسِ فَيَتَلَهَّفُ إلى الخُروجِ. رَمى فَجْأَةً فِرْشاتَهُ، وقالَ:



«ما لي ولِلطِّلاءِ الآنَ!» ثُمَّ زَحَفَ صُعُدًا عَبْرَ النَّفَقِ الأَمامِيِّ لِبَيْتِهِ. وكانَ عَلَيْهِ أَنْ يَنْبُشَ بِمَخالِبِهِ ويَكْشِطَ ويَخْدِشَ لِيَشُقَّ لَهُ طَريقًا عَبْرَ النَّفَقِ الَّذي امْتَلأَ بِالحَشائِشِ والتُّرابِ والحَصى خِلالَ أَشْهُرِ الشِّتاءِ. أَخيرًا، وبَعْدَ جَهْدٍ عَظيمٍ، بَرَزَ خَطْمُهُ (أَنْفُهُ) فَوْقَ الأَرْضِ، ثُمَّ وَجَدَ نَفْسَهُ يَتَدَحْرَجُ عَلى العُشْبِ الدّافِئِ.

أَحَسَّ بِالسَّعادَةِ وقالَ مُتعَجِّبًا مِنْ نَفْسِهِ: «الرَّبيعُ البَديعُ يَدْعوني إلَيْهِ، وأَنا أَحشُرُ نفسي تَحْتَ الأَرْضِ لِأَطليَ المَنْزِلَ!»

راحَ الخُلْدُ يَقْفِزُ بِمَرَحٍ فَوْقَ الحَديقَةِ. وبَيْنَما هُوَ يَجتازُ الحُقولَ وَجَدَ نَفْسَهُ أَمامَ ضَفَّةِ نَهْرٍ.

لَمْ يرَ مِنْ قَبْلُ نَهْرًا. كانَ الماءُ يَزْخَرُ بِالحَياةِ والحَرَكَةِ، فيَتَطايَرُ مِنْهُ الرَّذاذُ ويَجيشُ مُتَموِّجًا ويَتَأَلَّقُ تَأَلُّقًا. وراحَ الخُلْدُ يَلْعَبُ ويَقْفِزُ مِنْ مكانٍ إلى آخَرَ إلى أَنْ أَحَسَّ بِالتَّعَبِ.

جَلَسَ عِنْدَ ضَفَّةِ النَّهرِ المُعْشِبَةِ وراحَ يُنْصِتُ إلى خَريرِ الماءِ. وبَيْنا هُوَ يَنْظُرُ ناحِيَةَ الضَّفَّةِ الأُخْرى رَأى فَجوَةً سَوْداءَ. ورَأى في الفَجْوَةِ جِسْمًا صَغيرًا يَلْمَعُ ويَغْمِزُ فعَرَفَ أَنَّهُ حَيَوانٌ! وسُرْعانَ ما أَطَلَّ مِنَ الفَجْوَةِ رَأْسٌ صَغيرٌ.



كانَ الرَّأْسُ الَّذي أَطَلَّ بُنِّيًّا ذا شارِبَيْنِ طَويلَيْنِ وأُذُنَيْنِ صَغيرَتَيْنِ وشَعْرٍ سَميكٍ ناعِمٍ. إِنَّهُ جُرَذُ الماءِ!

وَقَفَ الحَيَوانانِ يَنْظُرُ أَحَدُهما إلى الآخَرِ.

قالَ جُرَذُ الماءِ: «مَرْحَبًا، أَيُّها الخُلْدُ! اِسْمي جُرَيذ.»

وقالَ الخُلْدُ: «مَرْحَبًا، يا جُرَذَ الماءِ! اِسْمي خَلّود.»

«أَتَرْغَبُ في المَجيءِ إلى عِنْدي؟»

«كَيْفَ أَصِلُ إِلَيْكَ وأَنا لا أَعْرِفُ مَسالِكَ النَّهْرِ؟»



اِنْحَنى جُرَيْذ وفَكَّ حَبْلًا، ورَكِبَ زَوْرَقًا صَغيرًا يَتَّسِعُ لِحَيَوانَيْنِ، وراحَ يُجَدِّفُ ناحِيَةَ الخُلْدِ. وعِنْدَما وَصَلَ بِزَوْرَقِهِ الأَبْيَضِ مَدَّ مِخْلَبَهُ إلى الخُلْدِ وأَعانَهُ عَلى رُكوبِ الزَّوْرَقِ.

تصادَقَ الحَيَوانانِ في الحالِ. وأَدْهَشَ جُرَذَ الماءِ أَنَّ صَديقَهُ لَمْ يَعْرِفْ تِلْكَ المِنْطَقَةَ مِنْ قَبْلُ.

قالَ جُرَيْذ: «لَيْسَ هُناكَ مِنْ شَيْءٍ يُداني مُتْعَةَ التَّجْوالِ بِالزَّوْرَقِ.»

ثُمَّ خطَرَتْ لَهُ فِكْرَةٌ: «اِسْمَعْ، إذا لَمْ تَكُنْ مَشْغولًا هذا الصَّباحَ، فإنّي أَقْتَرِحُ أَنْ نَقومَ بِنُزْهَةٍ نَهرِيَّةٍ نَشْغَلُ فيها نَهارَنا.»

أَسْنَدَ خَلّود ظَهْرَهُ إلى الوَسائِدِ النّاعِمَةِ وقالَ بِسَعادَةٍ: «فَلْنَبْدأْ نُزْهَتَنا فَوْرًا!»

وجَلَبَ جُرَيْذ سَلَّةَ نُزْهَةٍ وقالَ: «ضَعْ هذِهِ عِنْدَ قَدَمَيْكَ!»

«ماذا في داخِلِها؟»

أَجابَ جُرَيْذ: «دَجاجٌ مُبَرَّدٌ، ولَحْمُ بَقَرٍ مُبَرَّدٌ، وخِيارٌ مُخَلَّلٌ، وخَضْراواتٌ، وخُبْزٌ، وعَصيرٌ.»



هَتَفَ خَلّود وقَدْ أَحَسَّ بِالجوعِ: «كَفى! هذا كَثيرٌ!»

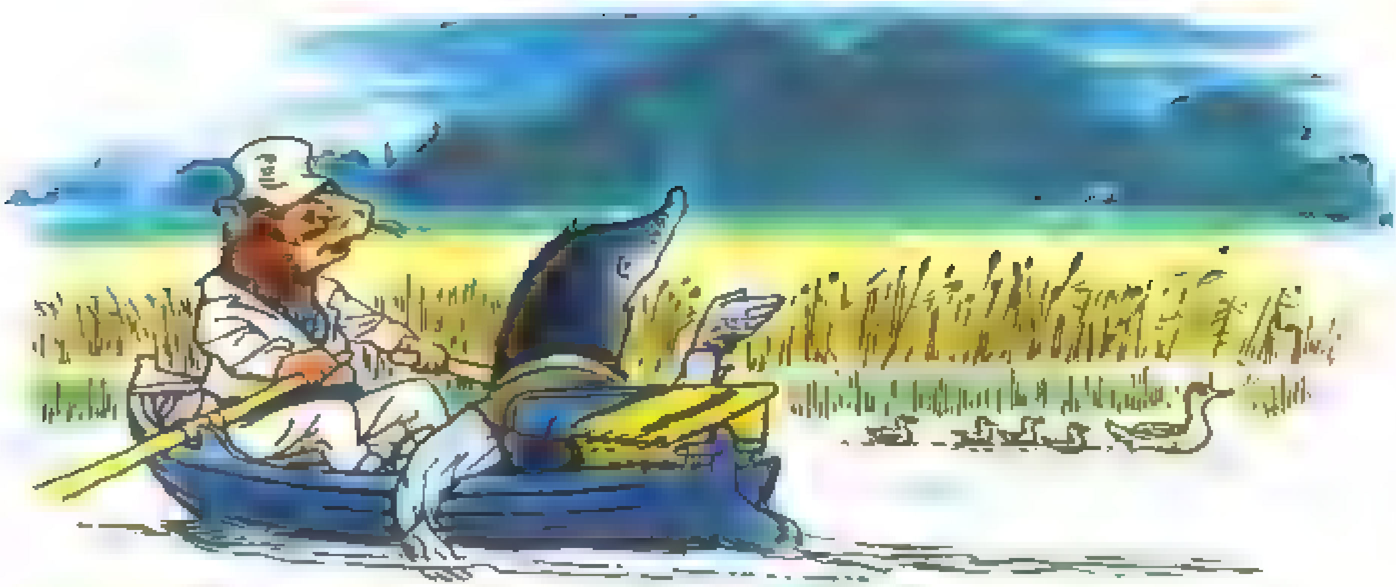
فقالَ جُرَيْذ جادًّا: «أَتَظُنُّ ذلِكَ؟ هذا ما آخُذُهُ عادَةً في مِثْلِ هذِهِ النُّزُهاتِ.»

راح جُرَيْذ يُجَدِّفُ بِصَمْتٍ، بَيْنَما كانَ الخُلْدُ يُمَتِّعُ نَفْسَهُ بِالمَشاهِدِ الجَديدَةِ والرَّوائِحِ الطَّيِّبَةِ، ويُنْزِلُ يَدَهُ في الماءِ بِسَعادَةٍ ومَرَحٍ. وسَرَّ جُرَذَ الماءِ أَنَّ صَديقَهُ يَسْتَمْتِعُ بِالرِّحْلَةِ وراحَ يَشْرَحُ لَهُ سَبَبَ تَعَلُّقِهِ بِالنَّهْرِ قائِلًا: «إِنَّهُ عالَمي، ولا أُريدُ عالَمًا سِواهُ.»

سَأَلَ خَلّود: «لكِنْ أَلا تَشْعُرُ بِالضَّجَرِ أَحْيانًا؟ وَحيدًا أَنْتَ والنَّهْرُ، ولا أَحَدَ يُؤْنِسُ وَحْدَتَكَ؟»



«لا أَحَدَ يُؤْنِسُ وَحْدَتي! لا بُدَّ أَنَّكَ تَمْزَحُ! إِنَّهُ مَليءٌ بِالمَخْلوقاتِ. أَحْيانًا تُضايِقُني كَثْرَتُهُمْ. فهُنا تَعيشُ ثَعالِبُ الماءِ، ودَجاجُ الماءِ، والبَطُّ وسِواها، وتَراها حَوْلَكَ طَوالَ النَّهارِ!»



قالَ خَلّود مُشيرًا بِيَدِهِ إلى أَجَمَةٍ مِنَ الأَشْجارِ مُمْتَدَّةٍ وَراءَ الحُقولِ: «ما ذاك؟»

«إنَّها غابَةٌ. نحْنُ، سُكّانَ ضِفافِ الأَنْهارِ، لا نَذْهَبُ كَثيرًا إلى هُناكَ». قالَ خَلّود: «أَلَيْسَ في الغابَةِ مَخْلوقاتٌ طَيِّبَةٌ؟»

«نَعَمْ. السَّناجيبُ لَطيفَةٌ، وكَذلِكَ الأَرانِبُ. ولا بَأْسَ بِالغُرَيْرِ. الحَيَواناتُ لا تُزْعِجُهُ، وخَيْرٌ لَها أَلّا تَفْعَلَ!»

قالَ خَلّود: «ولِمَ يَرْغَبُ أَحَدٌ في إزْعاجِهِ؟»

«في الغابَةِ حَيَواناتٌ أُخْرى: اِبْنُ عِرْسٍ، والقاقُمُ، والثَّعْلَبُ وأَمْثالُها. لَيْسَتْ خَطِرَةً، لكِنْ يُسْتَحْسَنُ عَدَمُ الوُثوقِ بِها.»

«وما ذاكَ الَّذي أَراهُ وَراءَ الغابَةِ؟ فإنّي أَرى رُقْعَةً زَرْقاءَ وتِلالًا ودُخانًا.»

أَجابَ جُرَيْذ: «وَراءَ الغابَةِ العالَمُ الفَسيحُ. وهذا أَمْرٌ لا يَعْنيكَ ولا يَعْنيني.»

وهكَذا بَدَآ رِحْلَتَهُما. ثُمَّ أَحَسَّ الخُلْدُ بِالجُوعِ.

بَيْنَما كانا يَأْكُلانِ مَرَّ بِهِما زائِرانِ: ثَعْلَبُ ماءٍ وغُرَيْرٌ. كانَ ثَعْلَبُ الماءِ -واسْمُهُ ثَعْلَبَة- يُطارِدُ سَمَكَةً فلَمّا رَآهُما خَرَجَ إلى ضَفَّةِ النَّهْرِ، ونَفَضَ جَسَدَهُ وحَيّاهُما. أَمّا الغُرَيرُ -واسْمُهُ غَرْغور- فقَدِ اقْتَرَبَ مِنْهُما ومَدَّ رَأْسَهُ المُخَطَّطَ مِنْ وَراءِ شَجَرَةٍ وتَمْتَمَ: «جاءَنا زُوّارٌ!» ثُمَّ تابَعَ طَريقَهُ.



وقَدْ ذَكَرَ لَهُما ثَعْلَبَة أَنَّ صَديقَهُمُ المُتْعِبَ في الجِوارِ. وما كادَ يُكْمِلُ كَلامَهُ حَتّى أَطَلَّ ضَفْدوع الضِّفْدَعُ يَقودُ زَوْرَقَ سِباقٍ



بِمِجْدافَيْنِ. كانَ ضَفْدوع قَصيرًا بَدينًا، يُجَدِّفُ تَجْديفًا رَدِيًّا ويَميلُ في تَجْدِيفِهِ ذاتَ اليَمينِ وذاتَ اليَسارِ.

قالَ جُرَيْذ: «لَنْ يُتْقِنَ التَّجْديفَ أَبَدًا.»

وقالَ ثَعْلَبَة: «فَلْيَتَعَلَّمْ أَوَّلًا كَيْفَ يُمْسِكُ المِجْدافَيْنِ!» ثُمَّ غَطَسَ فَجْأَةً في الماءِ وانْدَفَعَ وَراءَ سَمَكَةٍ.

تابَعَ جُرَيْذ يَقولُ: «ضَفْدوع يَبْحَثُ دائِمًا عَنْ شَيْءٍ جَديدٍ. اِشْتَرى في العامِ الماضي كوخًا نَهْرِيًّا نَقّالًا، لكِنْ سُرْعانَ ما مَلَّهُ.»

عادَ جُرَذُ الماءِ والخُلْدُ إلى بَيْتِ جُرَيْذ على ضَفَّةِ النَّهْرِ وجَلَسا إلى جانِبِ النّارِ في مَقْعَدَيْنِ مُريحَيْنِ واسِعَيْنِ. ودَعا جُرَذُ الماءِ صَديقَهُ الخُلْدَ لِيُقيمَ مَعَهُ طوالَ الصَّيْفِ. أَوى الخُلْدُ إلى الفِراشِ في غُرْفَةٍ لَطيفَةٍ مُريحَةٍ، وأَخَذَ يُنْصِتُ إلى صَوْتِ ماءِ النَّهْرِ يُداعِبُ بَيْتَ صَديقِهِ وصوتِ الرّيحِ وَهِيَ تُلاعِبُ أَشْجارَ الصَّفْصافِ مِنْ حَوْلِهِ.

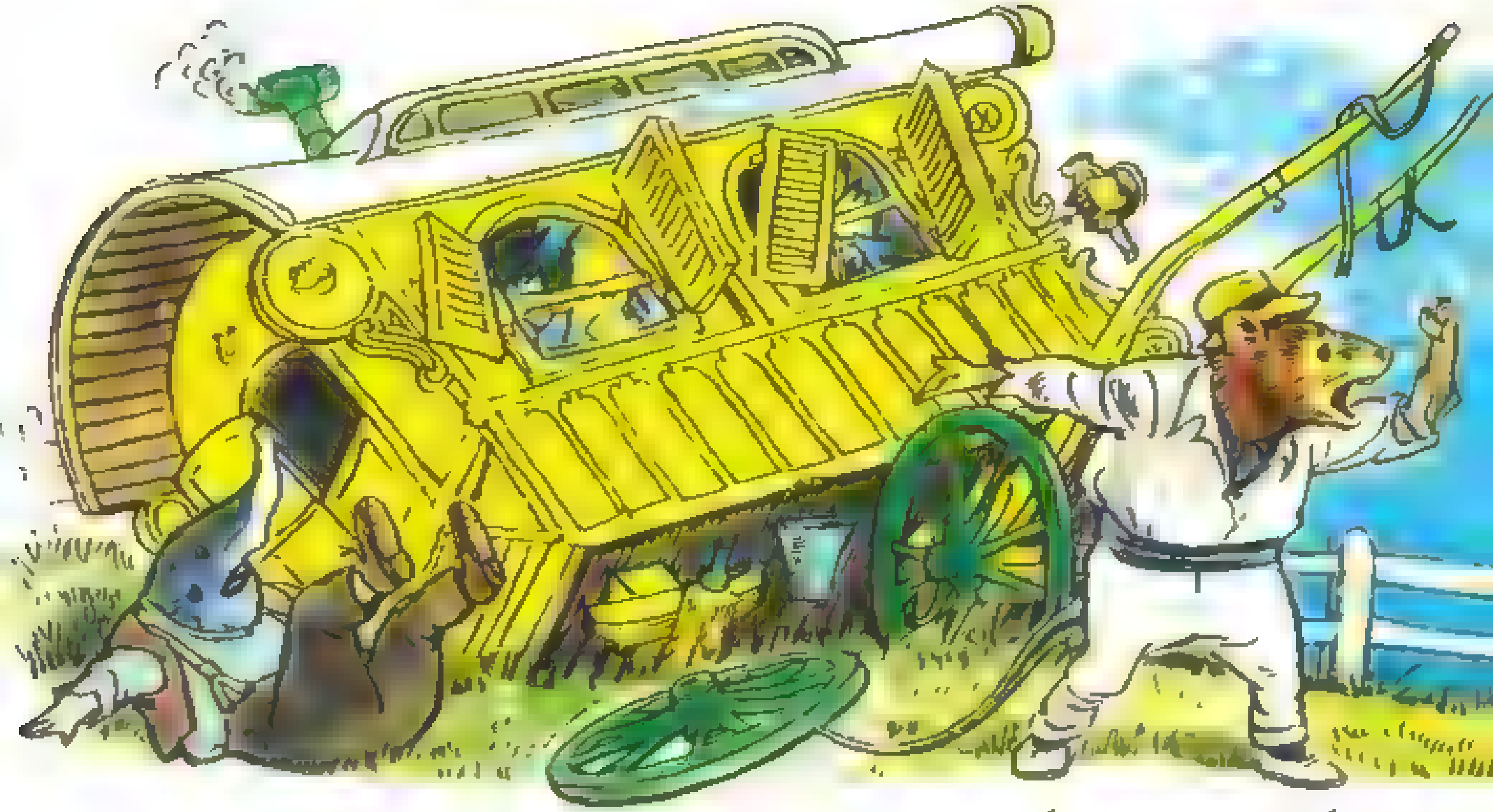


٢ الطَّريقُ العامُّ

في اليَوْمِ الثّاني اصْطَحَبَ جُرَذُ الماءِ صَديقَهُ الخُلْدَ لِزيارَةِ ضَفْدوع الَّذي كانَ يَعيش في مَنْزِلٍ قَديمٍ لَطيفٍ قائِمٍ على تَلَّةٍ اسْمُها تَلَّةُ الضَّفادِعِ. وكانَ المَنْزِلُ مَبْنِيًّا مِنَ القِرْميدِ الأَحْمَرِ يَصِلُ بَيْنَهُ وبَيْنَ ضَفَّةِ النَّهْرِ سَفْحٌ تُغَطّيهِ الأَعْشابُ.

كانَ ضَفْدوع ثَرِيًّا لكِنَّهُ كانَ قَليلَ الإدْراكِ. وكانَ على جُرَذِ الماءِ والغُرَيْرِ أَنْ يُراقِبا دائِمًا تَصَرُّفاتِهِ. وكانَ طَيِّبَ القَلْبِ، لكِنْ يُحِبُّ المَظاهِرَ، فيُوقِعُهُ ذلِكَ دائِمًا بِالمَتاعِبِ.

وَجَدَهُ الزّائِرانِ جالِسًا في الحَديقَةِ يَتَأَمَّلُ خَريطَةَ طُرُقٍ. فقَدْ كانَ اشْتَرى عَرَبَةً، وطَلاها بِاللَّوْنِ الأَصْفَرِ وطَلى عَجَلاتِها بِاللَّوْنِ الأَخْضَرِ،



وأَعَدَّ لَها حِصانًا أَشْهَبَ يَجُرُّها. وكانَ يَنْوي القِيامَ بِأَوَّلِ رِحْلَةٍ لَهُ بِتِلْكَ العَرَبَةِ، فأَقْنَعَ الخُلْدَ وجُرَذَ الماءِ بِمُرافَقَتِهِ.

كانَ ضَفْدوع مُفْعَمًا بالبِشْرِ والسَّعادَةِ. راحَ يَتَمايَلُ ويَقولُ بِحَماسَةٍ:

«سَنكونُ كُلَّ يَوْمٍ في مَكان، ما أَجْمَلَ هذا الزَّمان!»

انْطَلَقَ ثَلاثَتُهُمْ، لكِنْ قَبْلَ أَنْ تَسيرَ العَرَبَةُ طَويلًا، حَدَثَ أَمْرٌ فَظيعٌ!

كانَتِ السَّعادَةُ تَغْمُرُهُمْ وَهُمْ يَنْطَلِقونَ فَوْقَ الحَديقَةِ. فَجْأَةً سَمِعوا صَوْتًا غَريبًا صاخِبًا. لَقَدْ مَرَّتْ بِحِذائِهِمْ سَيّارَةٌ تَسيرُ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ، فأَثارَتْ سَحابَةً مِنَ الغُبارِ واخْتَفَتْ.

نَفَرَ الحِصانُ المِسْكينُ، وانْقَلَبَتِ العَرَبَةُ ووَقَعَتْ في حُفْرَةٍ، فتَحَطَّمَتْ نَوافِذُها وانْخَلَعَتْ إِحْدَى عَجَلاتِها.

اِشْتَعَلَ جُرَذُ الماءِ والخُلْدُ غَضَبًا وصاحا وهُما يَرْفَعانِ قَبْضَتَيْهِما مُهَدِّدَيْنِ: «يا لَهُ مِنْ سائِقٍ أَرعَنَ!» أَمّا ضَفْدوع فقَدْ جَلَسَ عَلى الأَرْضِ زائِغَ العَيْنَيْنِ، دونَ أَنْ يَبْدُوَ عَلَيْهِ أَنَّهُ انْزَعَجَ لِتَحَطُّمِ العَرَبَةِ. لَقَدْ كانَ يُفَكِّرُ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِشراءِ سَيّارَةٍ وقِيادَتِها!

في اليَوْمِ التّالي، لَمْ يَكُنْ لِأَحَدٍ مِنْ حَديثٍ عِنْدَ ضَفَّةِ النَّهْرِ غَيْرَ حِكايَةِ العَرَبَةِ المُحَطَّمَةِ.

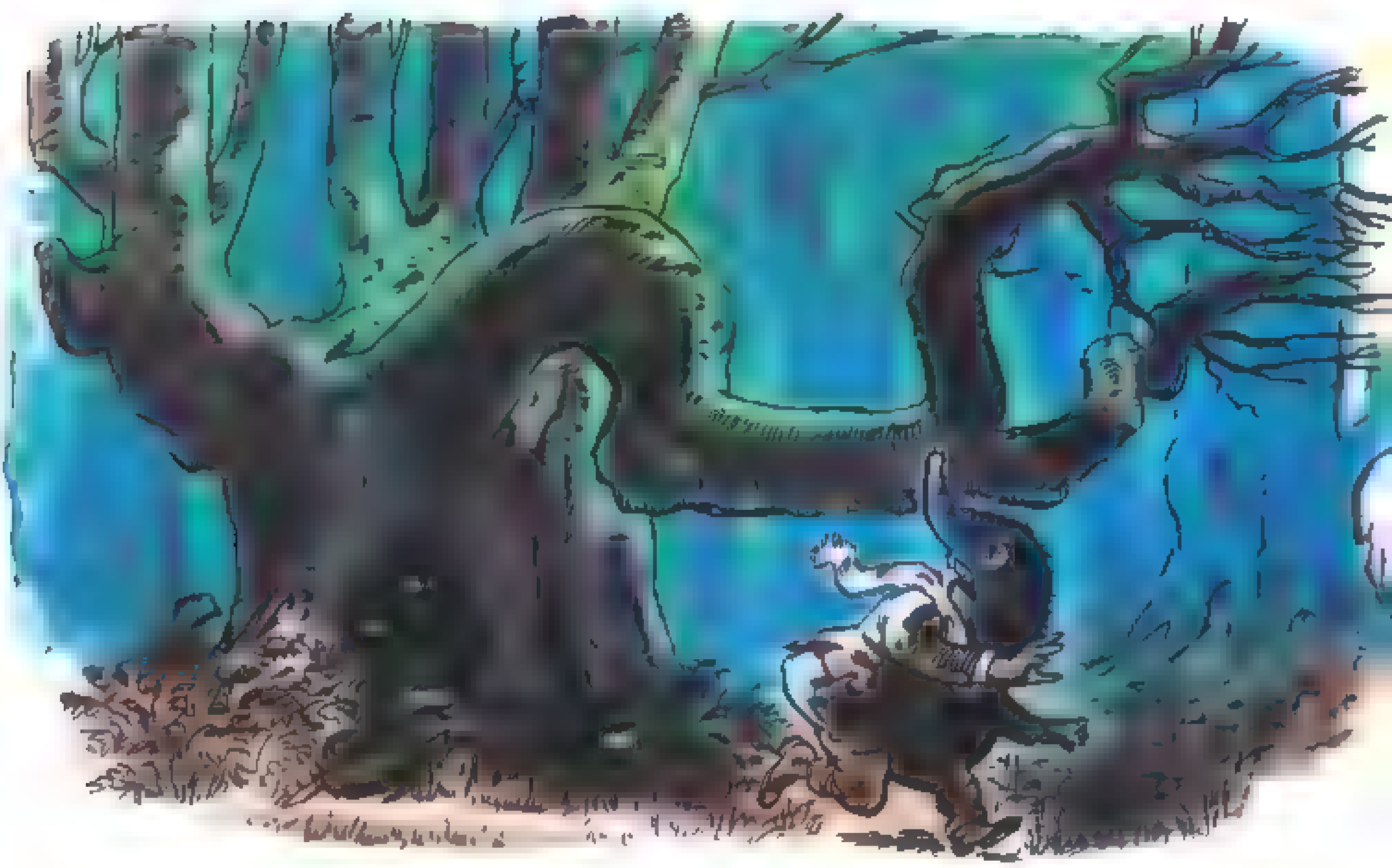
«أَسَمِعْتَ آخِرَ الأَخْبارِ؟ لَقَدْ تَوَجَّهَ ضَفْدوع إلى المَدينَةِ هذا الصَّباحَ. أَتَدْري ماذا سَيَفْعَلُ؟ سيَشْتَري سَيّارَةً كَبيرَةً غالِيَةَ الثَّمَنِ!»

٣ الغابة

اِنْتَهى أَخيرًا الصَّيْفُ الطَّويلُ الحارُّ، وحَلَّ الشِّتاءُ. وكانَ الخُلْدُ لا يَزالُ يَعيشُ في بَيْتِ صَديقِهِ جُرَذِ الماءِ عَلى ضَفَّةِ النَّهْرِ.

في أَحَدِ الأَيّامِ البارِدَةِ قَرَّرَ الخُلْدُ أَنْ يَذْهَبَ إلى الغابَةِ لِزيارَةِ الغُرَيْرِ. كانَ قَدْ وَطَّدَ مَعْرِفَتَهُ بِسائِرِ أَصْدِقاءِ جُرَذِ الماءِ، إلا الغُرَيْرَ فإِنَّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ عَرَفَهُ مَعْرِفَةً وَثيقَةً. وفي الشِّتاءِ تُقيمُ مُعْظَمُ الحَيَواناتِ في بُيوتِها وتَسْتَريحُ بَعْدَ صَيْفٍ ناشِطٍ. بَعْضُها يَنامُ أَكْثَرَ الوَقْتِ ولا مَجالَ لإِقْناعِهِ بِالقِيامِ بِأَيِّ نَشاطٍ.

لِذا كانَ الخُلْدُ يَعْلَمُ أَنَّهُ إذا أَرادَ أَنْ يَرى الغُرَيْرَ فعَلَيْهِ أَنْ يَزورَهُ في بَيْتِهِ. تَسَلَّلَ مِنْ بَيْتِ جُرَذِ الماءِ الدّافِئِ إلى الهَواءِ الطَّلْقِ. وكانَ الرّيفُ أَجْرَدَ بارِدًا، والغُصَيْناتُ اليابِسَةُ تَتَكَسَّرُ تَحْتَ قَدَمَي الخُلْدِ. وكانَتِ الأَشْجارُ عارِيَةً مِنَ الأَوْراقِ وذاتَ أَشْكالٍ غَريبَةٍ مُوحِشَةٍ. وراحَ الظَّلامُ يَهْبِطُ بِسُرْعَةٍ فأَحَسَّ الخُلْدُ بالذُّعْرِ.



زادَ في خَوْفِهِ وُجوهٌ تُطِلُّ مِنْ تَجاويفِ الأَشْجارِ، فتَتَراءى لَهُ وُجوهًا شَيْطانِيَّةً تَسْكُنُ في كُلِّ زاوِيَةٍ مِن زَوايا الغابَةِ.

ثُمَّ أَخَذَ الخُلْدُ يَسْمَعُ أَصْواتَ صَفيرٍ حادَّةً. يَسْمَعُها مِنْ أَمامِهِ ومِنْ وَرائِهِ. وكانَ وَحيدًا لا أَمَلَ بِنَجْدَةٍ تَأْتيهِ وَسْطَ الضَّياعِ والظَّلامِ.

ثُمَّ أَحَسَّ بِوَقْعِ خُطُواتٍ حَوْلَهُ. أَحَسَّ بِأَقْدامٍ صَغيرَةٍ تُلاحِقُهُ، تُخَشْخِشُ فَوْقَ أَوْراقِ الأَشْجارِ السّاقِطَةِ. فراحَ يَجْري مَذْعُورًا ويَصْطَدِمُ بِالأَشْجارِ هُنا وهُناكَ.

في هذِهِ الأَثْناءِ اكْتَشَفَ جُرَذُ الماءِ أَنَّ الخُلْدَ لَيْسَ في البَيْتِ. ورَأى آثارَ أَقْدامِهِ تَتَّجِهُ ناحِيَةَ الغابَةِ. فأَمْسَكَ عَصًا وأَسْرَعَ وَراءَهُ. وأَخيرًا وَجَدَهُ لائِذًا بِشَجَرَةِ زانٍ يَرْتَعِشُ خَوْفًا.

ثُمَّ راحَتِ الثُّلوجُ تَتَساقَطُ بِكَثافَةٍ. وسُرْعانَ ما غَطّى الثَّلْجُ الأَرْضَ بِبِساطٍ أَبْيَضَ، واخْتَفَتِ المَمَرّاتُ وعَلاماتُ الغابَةِ.

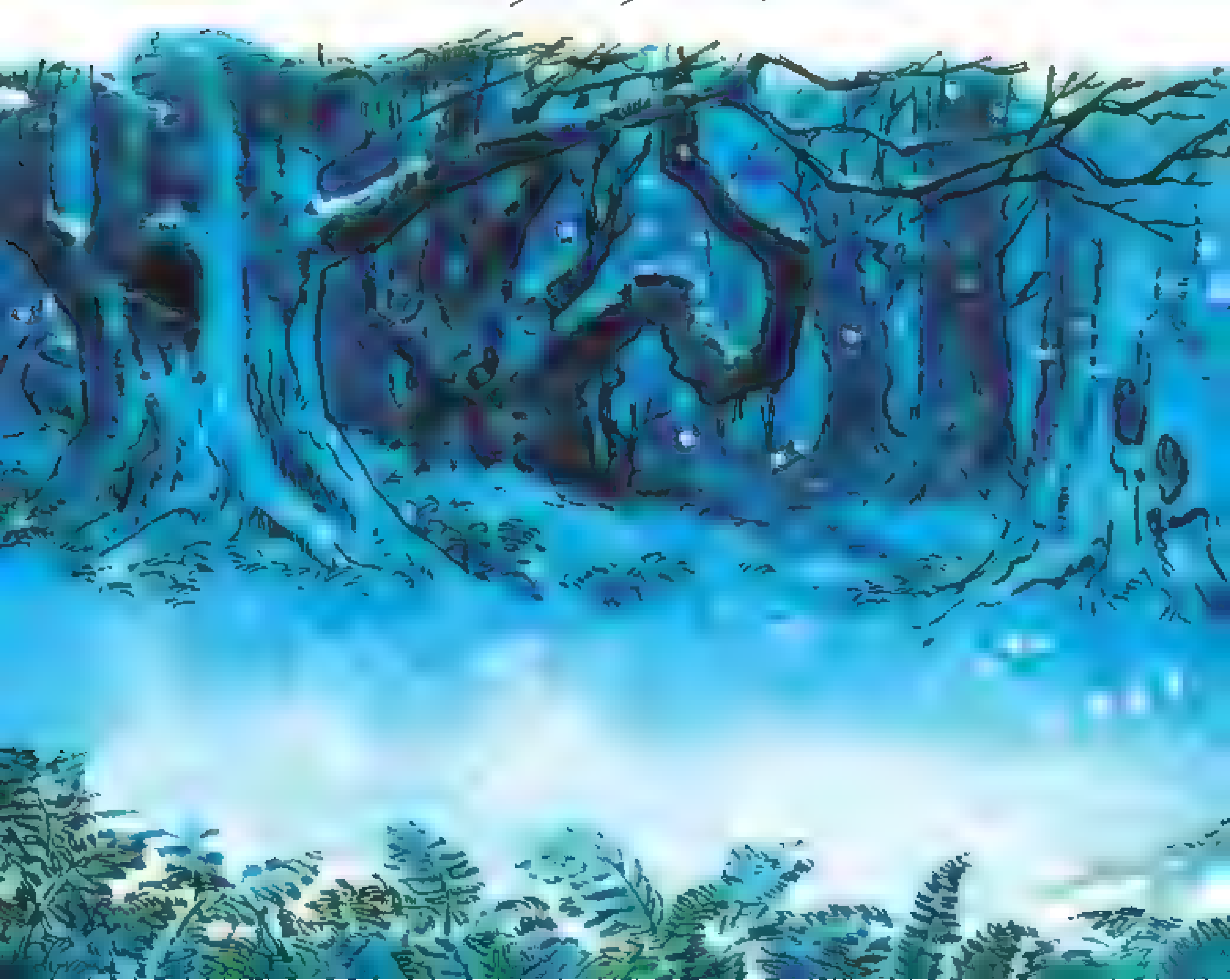


وَجَدَ جُرَذُ الماءِ والخُلْدُ صُعوبَةً بالِغَةً في شَقِّ طَريقِهِما في الغابَةِ. ووَقَعَ الخُلْدُ عَلى جِسْمٍ صُلْبٍ فجَرَحَ ساقَهُ. كانَ ذٰلِكَ الجِسْمُ مِكْشَطَةً لِتَنْظيفِ الأَحْذِيَةِ عِنْدَ الأَبْوابِ.

قالَ جُرَذُ الماءِ بِشَيْءٍ مِنَ الأَمَلِ: «حَيْثُ تَكونُ المِكْشَطَةُ يَكونُ بابٌ!» وسُرْعانَ ما وَجَدا بابًا سَميكًا، وفَوْقَ البابِ جَرَسٌ عَتيقُ الطِّرازِ ولَوْحَةٌ نُحاسِيَّةٌ مَكْتوبٌ عَلَيْها: «مَنْزِلُ غَرْغور».

رَنَّ جُرَذُ الماءِ الجَرَسَ العَتيقَ الطِّرازِ. وبَعْدَ شَيْءٍ مِنَ الانْتِظارِ فَتَحَ الغُرَيْرُ البابَ، وقَدْ بَدا مُتَضايقًا مِنْ تِلْكَ الزِّيارَةِ اللَّيْلِيّةِ غَيْرِ المُنْتَظَرَةِ.

لٰكِنَّهُ سُرْعانَ ما ابْتَسَمَ ورَحَّبَ بِالزّائِرَيْنِ.





أَعَدَّ الغُرَيْرُ لِزائِرَيْهِ عَشاءً ساخِنًا لَذيذًا. وجَلَسوا ثَلاثَتُهُمْ إلى جانِبِ النّارِ يَتَحَدَّثونَ عَنْ ضَفْدوع وهَوَسِهِ الجَديدِ بِالسَّيّاراتِ. وقَدْ رَأى غَرْغور أَنَّ عَلَيْهِمْ، بَعْدَ انْتِهاءِ الشِّتاءِ، أَنْ يَفْعَلوا شَيْئًا يَرُدُّ الضِّفْدَعَ المَغْرورَ المَهْووسَ إلى صَوابِهِ.

في صَباحِ اليَومِ التّالي تَناوَلَ ثَلاثَتُهُمْ فُطورًا شَهِيًّا. وشارَكَهُمْ طَعامَهُمْ قُنْفُذانِ ضَلّا الطَّريقَ ذَلِكَ الصَّباحَ. وقَدْ قامَ غَرْغور بَعْدَ الطَّعامِ فقادَ ضَيْفَيْهِ مِنْ بابِ جُحْرِهِ الخَلْفِيِّ عَبْرَ مَجْموعَةٍ مِنَ الأَنْفاقِ أَوْصَلَتْهُما إلى طَرَفِ الغابَةِ.

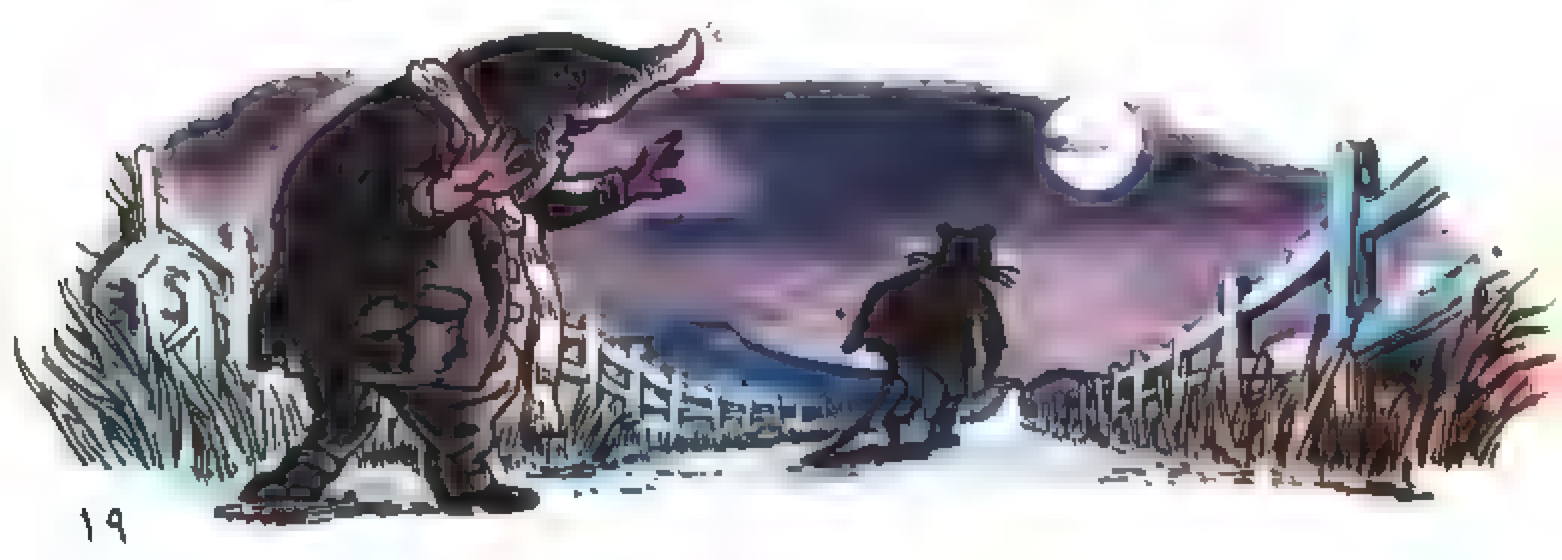
اِلْتَفَتَ جُرَذُ الماءِ والخُلْدُ إلى الوَراءِ فَبَدَتْ لَهُما الغابَةُ قاتِمَةً مُخيفَةً، فأَسْرَعا ناحِيَةَ البَيْتِ الآمِنِ الدافِئِ على ضَفَّةِ النَّهْرِ.

٤ ما أحْلى الرُّجوعَ إلَيْهِ!

اِقْتَرَبَ الشِّتاءُ مِنْ مُنْتَصَفِهِ. وخَرَجَ الخُلْدُ وجُرَذُ الماءِ يَسْتَكْشِفانِ بَعْضَ مَناطِقِ الرّيفِ. وكانَ اللَّيْلُ قَدْ هَبَطَ عِنْدَما وَصَلا إلى إحْدى القُرى، ورَأَيا أَضْواءَ القَناديلِ تُشِعُّ مِنْ نَوافِذِ البُيوتِ. وعَبْرَ تِلْكَ النَّوافِذِ رَأَيا أَطْفالًا يَنامون نَوْمًا هادِئًا في أَسِرَّتِهِمْ، ورِجالًا يَقْرَأُونَ، ونساءً يَخِطْنَ الثِّيابَ. ورَأَيا طائِرًا مُتْعَبًا في قَفَصٍ. أَحَسّا بِالوَحْشَةِ والبَرْدِ والتَّعَبِ، وأَنَّهُما بَعيدانِ جِدًّا عَنِ البَيْتِ.

تابَعَ جُرَذُ الماءِ والخُلْدُ سَيْرَهُما عَبْرَ الحُقولِ. وكانَ خَلّود يَسيرُ بَطيئًا وقَدْ مالَ بِخَطْمِهِ ناحِيَةَ الأَرْضِ. اِشْتَمَّ فَجْأَةً رائِحَةً اسْتَوْقَفَتْهُ، وأَحَسَّ بِرِعْشَةٍ تَدِبُّ في جَسَدِهِ. لَقَدْ كانَتْ تِلْكَ رائِحَةَ بَيْتِهِ الَّذي هَجَرَهُ مُنْذُ أَوَّلِ الرَّبيعِ.

في غَمْرَةِ حَياتِهِ الجَديدَةِ كانَ قَدْ نَسِيَ بَيْتَهُ الصَّغيرَ. أَمّا الآنَ فَقَدْ عادَ شَوْقُهُ إلَيْهِ قَوِيًّا طاغِيًا، فَنادى صَديقَهُ طالِبًا مِنْهُ التَّوَقُّفَ.



لكِنَّ جُرَذَ الماءِ لَمْ يَسْمَعْ نِداءَ صَديقِهِ، وصاحَ: «أَسْرِعْ يا صَديقي العَجوزَ! لا يَزالُ أَمامَنا طَريقٌ طَويلٌ.»

وَقَفَ الخُلْدُ المِسْكينُ وَحيدًا حائِرًا في الطَّريقِ. كانَتْ رائِحَةُ البَيْتِ تَدْعوهُ إِلَيْها، لكِنَّهُ لَمْ يُرِدْ أَنْ يَتَخَلّى عَنْ صَديقِهِ. ثُمَّ أَخَذَ يَجُرُّ نَفْسَهُ بِبُطْءٍ. ولاحَظَ جُرَذُ الماءِ أَنَّ صَديقَهُ يُجَرْجِرُ نَفْسَهُ. ثُمَّ سَمِعَهُ يَبْكي بُكاءً مَكْتومًا.

أَسْرَعَ جُرَيذ إلى صَديقِهِ، ووَضَعَ يَدَهُ عَلى كَتِفِهِ وفي عَيْنَيْهِ نِظْرَةُ تَساؤُلٍ. قالَ الخُلْدُ وَهُوَ لا يَزالُ يَبْكي: «أَعْرِفُ أَنَّ بَيْتي صَغيرٌ بَسيطٌ، لَيْسَ كَبَيْتِكَ اللَّطيفِ، ولا كَمَنْزِلِ ضَفْدوع الواسِعِ، لكِنَّهُ بَيْتي، وأَنا فَخورٌ بِهِ.»

رَبَّتَ جُرَيْذ عَلى كَتِفِ صَديقِهِ، وقالَ: «لَقَدْ كُنْتُ قَصيرَ النَّظَرِ فَلَمْ أَفْهَمْ مَشاعِرَكَ يا صَديقي.» ثُمَّ اسْتَدارا لِتَتَبُّعِ رائِحَةِ البَيْتِ.

وَجَدَ الخُلْدُ بَعْضَ المَشَقَّةِ في الوُصولِ إلى بَيْتِهِ، لكِنَّهُ أَخيرًا عَثَرَ عَلى نَفَقٍ فَأَسْرَعَ يَنْزِلُ فيهِ. وكانَ في أَسْفَلِ النَّفَقِ بابٌ كُتِبَ عَلَيْهِ «مَنْزِلُ خَلّود». أَضاءَ الخُلْدُ مِصْباحًا فانْكَشَفَتْ غُرْفَةٌ صَغيرَةٌ لَطيفَةٌ فيها مَقْعَدٌ خَشَبِيٌّ وسِلالٌ مُعَلَّقَةٌ وساعَةٌ عَتيقَةٌ. وكانَ في البَيْتِ أَيْضًا حَوْضٌ لِلأَسْماكِ الذَّهَبِيَّةِ مُطَعَّمٌ بِالأَصْدافِ.



كانَ البَيْتُ مَغطّى بِالغُبارِ وغَيْرَ مُرَتَّبٍ. فعادَ الخُلْدُ يَبْكي بُكاءً مَكْتُومًا، وقَدْ أَحسَّ بِالخَجَلِ مِنْ جَلْبِ صَديقِهِ إلى بَيْتِهِ غَيْرِ النَّظيفِ وغَيْرِ المُرَتَّبِ. لكِنَّ جُرَذَ الماءِ راحَ يَرْكُضُ في غُرَفِ المَنْزِلِ ويَفْتَحُ الدَّواليبَ مُسْتَكْشِفًا مَنْزِلَ صَديقِهِ. ثُمَّ أَشْعَلَ نارًا. فعادَ الهُدوءُ والاِطْمِئْنانُ إلى الخُلْدِ وأَمْسَكَ مِنْفَضَةَ غُبارٍ وراحَ يَعْمَلُ بِسُرْعَةٍ.

صاحَ جُرَيْذ بِانْشِراحٍ: «يا لَهُ مِنْ مَنْزِلٍ صَغيرٍ لَطيفٍ! لَقَدْ أَحْسَنْتَ تَنْظيمَهُ واسْتِغْلالَهُ يا صَديقي!»

ثُمَّ تَذَكَّرَ الخُلْدُ شَيْئًا، فَمَلأَتِ الدُّموعُ عَيْنَيْهِ وَهُوَ يَقُولُ: «ولكِنْ لَيْسَ عِنْدي عَشاءٌ أُقَدِّمُهُ لَكَ!»

قالَ جُرَذُ الماءِ: «كَفى قَلَقًا! إنّي أَرى فَتّاحَةَ سَرْدينٍ، فلا بُدَّ أَنَّ عِنْدَكَ مُعَلَّباتٍ.» وقَدْ وَجَدا عُلَبَ سَرْدينٍ وَبَعْضَ البَسْكَويتِ الجافِّ، فَجَلَسا يَسْتَعِدّانِ لِتَناوُلِ عَشائِهِما. فَجْأَةً سَمِعا ضَجيجًا يَقْتَرِبُ مِنَ المَدْخَلِ.

سَأَلَ جُرَيْذ: «ما هذا؟»

أَجابَ خَلّود: «لا بُدَّ أَنَّها فِئْرانُ الحَقلِ. فَهِيَ أَحْيانًا تَزورُني في مِثْلِ هذا الوَقْتِ مِنَ العامِ، فَنُغَنّي مَعًا ونُسَلّي أَنْفُسَنا في وَحْشَةِ الشِّتاءِ.»



حَمَلَ جُرَيْذ شَمْعَةً وَفَتَحَ خَلّود الباب، فإذا أَمامَهُما تِسْعَةُ فِئْرانِ حَقْلٍ تَقِفُ عَلى شَكْلِ نِصْفِ دائِرَةٍ.

كانَتِ الفِئْرانُ تَلُفُّ حَوْلَ أَعْناقِها شالاتٍ حَمْراءَ، وتَنِطُّ لِتُدْفِئَ نَفْسَها. صاحَ أَكْبَرُ الفِئْرانِ: «واحِدٌ، اثْنانِ، ثَلاثَةٌ!» فانْطَلَقَتِ الفِئْرانُ جَميعًا تُغَنّي بِصَوْتٍ ناعِمٍ لَطيفٍ:

أَهْـــلًا، أَهْـــلًا، يـا خَـلّـــودْ!
يـــا جَـــــوّالًا فــي الــبُــلْــدانْ
مَـــنْ يَـهْـجُـرْ بَـيْـتًـا سَـــوْفَ يَـعـودْ
فــالــبَـيْــتُ عَــزيــزٌ كَــالأَوْطــانْ



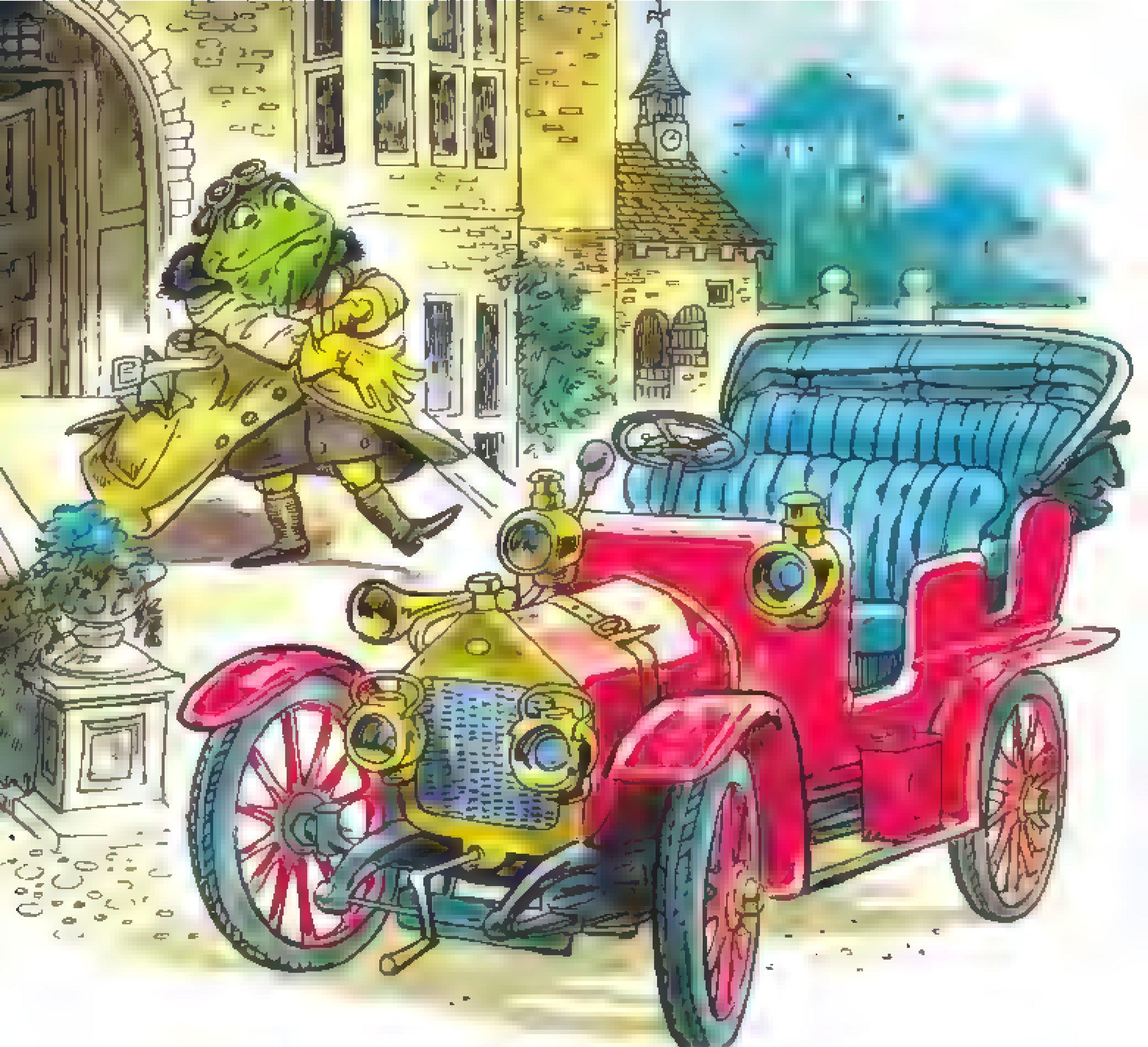
رَحَّبَ خَلّود وجُرَيْذ بِالفِئْرانِ المُغَنِّيَةِ. وحَمَّلَ جُريذ أَحَدَ الفِئْرانِ سَلَّةً وأَعْطاهُ نُقودًا وأَرْسَلَهُ لِشِراءِ طَعامٍ وهَدايا. وجَلَسَ الجَميعُ حَوْلَ النّارِ يَسْتَدْفِئونَ ويَتَحدَّثونَ. وعِنْدَما عادَ فَأْرُ الحَقْلِ يَحْمِلُ أَلْوانَ الطَّعامِ والشَّرابِ، جَلَسوا جَميعًا يَأْكُلونَ ويَشْرَبونَ.

أَخيرًا عادَ كُلُّ واحِدٍ إلى بَيْتِهِ يَحْمِلُ هَدِيَّةً إلى أُسْرَتِهِ. واندَسَّ الخُلْدُ وجُرَذُ الماءِ في سَريرِهِما. اِلْتَفَتَ الخُلْدُ حَوْلَهُ يَتَأَمَّلُ بَيْتَهُ الَّذي كانَ يُضيئُهُ لَهَبُ المِدْفَأَةِ، وأَحَسَّ بِسَعادَةٍ غامِرَةٍ وقالَ في نَفْسِهِ: «ما أَحلى الرُّجوعَ إلى البَيْتِ! كُلُّ مَخْلوقٍ يَحْتاجُ إلى بَيْتٍ يَكونُ لَهُ وَحْدَهُ ويَلْجَأُ إلَيْهِ.»

٥ السَّيِّدُ ضَفْدوع

في يَوْمٍ مُشْرِقٍ مِنْ أَيّامِ أَوائِلِ الصَّيْفِ جاءَ الغُرَيْرُ يَزورُ صَديقَيْهِ جُرَذَ الماءِ والخُلْدَ.

قالَ الغُرَيْرُ: «عَلَيْنا أَنْ نُعالِجَ أَمْرَ ضَفْدوع، فإنَّ تَصَرُّفاتِهِ تُحْرِجُنا جَميعًا. أَبوهُ كانَ صَديقي، ولا أُحِبُّ أَنْ أَتَخَيَّلَ خَيْبَةَ الأَمَلِ الَّتي كانَتْ سَتُصيبُ الأَبَ لَوْ رَأى تَصَرُّفاتِ ابْنِهِ. إنَّ هَوَسَ ضَفْدوع بِالسَّيّاراتِ قَدْ خَلَقَ لَهُ مَتاعِبَ مَعَ رِجالِ الشُّرْطَةِ.»



هَزَّ جُرَيْذ رَأْسَهُ مُوافِقًا وَهُوَ يَقولُ: «نَعَمْ، لَقَدْ تَسَبَّبَ في وُقوعِ حَوادِثِ سَيْرٍ كَثيرَةٍ. وسَمِعْتُ أَنَّهُ اشْتَرى هذا الأُسْبوعَ سَيّارَةً جَديدَةً.»

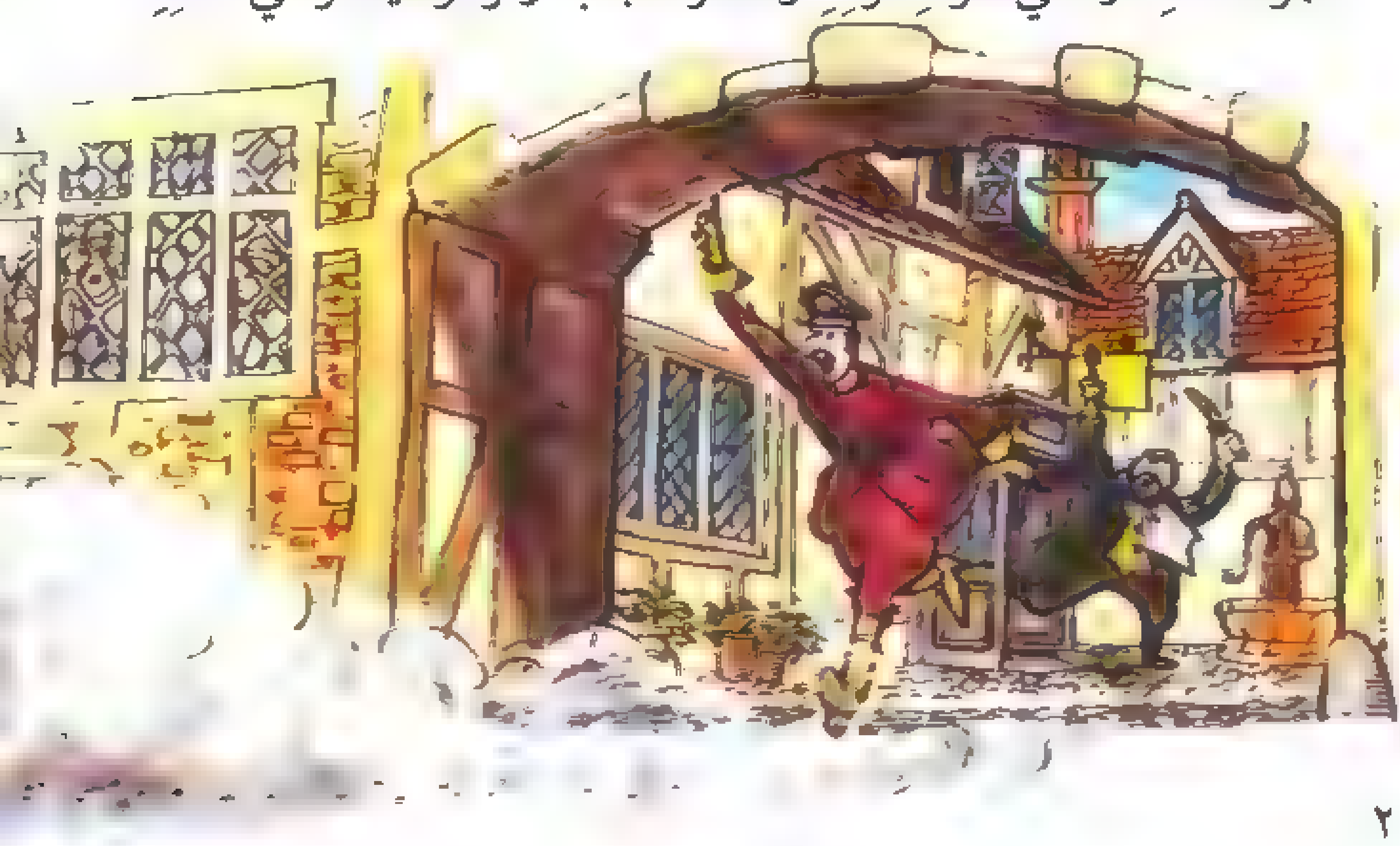
اِتَّجَهوا ثَلاثَتُهُمْ إلى مَنْزِلِ ضَفْدوع. ووَجَدوا أَمامَ المَنْزِلِ سَيّارَةً جَديدَةً حَمْراءَ بَرّاقَةً. ورَأَوْا صَديقَهُمُ الضِّفْدَعَ يَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهِ وقَدْ لَبِسَ قُفّازَيْنِ ومِعْطَفًا واسِعًا ووَضَعَ فَوْقَ رَأْسِهِ قُبَّعَةً ونَظّارَتَيْنِ، وراحَ يَمْشي مُتمايِلًا مُخْتالًا.

صاحَ ضَفْدوع بِانْشِراحٍ: «وَصَلْتُمْ في الوَقْتِ المُناسِبِ! سَوْفَ تَرَوْن كَيْفَ أَطيرُ بِهذِهِ السَّيّارَةِ الرّائِعَةِ.»

رَدَّ غَرْغور بِغَضَبٍ: «لَنْ تَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ ذلِكَ!» ثُمَّ أَمْسَكَهُ مِنْ عُنُقِهِ وجَرَّهُ إلى البَيْتِ، يُساعِدُهُ في ذلِكَ جُرَيْذ وخَلّود. وأَنَّبَهُ غَرغور على تَصَرُّفاتِهِ، وطلب مِنْهُ أَنْ يُقْلِعَ عن قِيادَةِ السَّيارَةِ بِتَهَوُّرٍ.



رَفَضَ ضَفْدوع أَنْ يَعِدَ بِالإِقْلاعِ عَنْ قِيادَةِ السَّيّارَةِ بِتَهَوُّرٍ، فَحَجَزَهُ أَصْدِقاؤهُ في غُرْفَةِ نَوْمِهِ وأَقْفَلوا البابَ وتَرَكوهُ يُفَكِّرُ في حالِهِ.

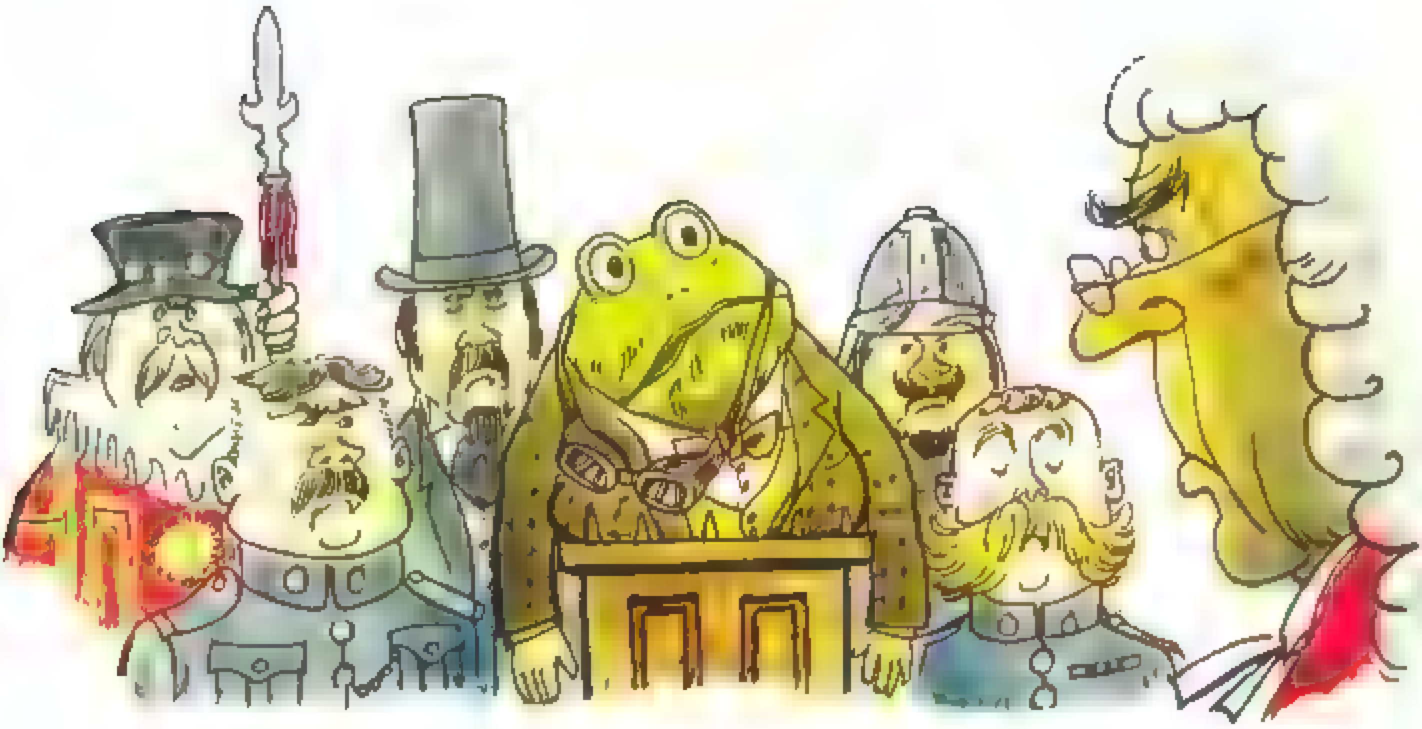


لكِنَّ الضِّفْدَعَ الشَّقِيَّ تَظاهَرَ بِالمَرَضِ، فذَهَبَ أَصْحابُهُ يَسْتَدْعونَ الطَّبيبَ. اِسْتَغَلَّ ضَفْدوع غِيابَ أَصْحابِهِ فهَرَبَ مِنَ النّافِذَةِ واتَّجَهَ ناحِيَةَ القَرْيَةِ ضاحِكًا فَخورًا بِذَكائِهِ.

رَأى في ساحَةِ فُنْدُقِ القَرْيَةِ سَيّارَةً جَميلَةً، فَلَمْ يَقْوَ عَلى مُقاوَمَةِ إغْراءِ تَجْرِبَتِها. قَفَزَ إلَيْها، وأَدارَها وانْطَلَقَ بِها بِسُرْعَةٍ كَبيرَةٍ مُخَلِّفًا وَراءَهُ عاصِفَةً مِنَ الغُبارِ.

راحَ وَهُوَ يَنْطَلِقُ بِسُرْعَةٍ، يُغَنّي أُغْنِيَةً يَتَحَدَّثُ فيها عَنْ ذَكائِهِ ومَهارَتِهِ وسُرْعَةِ بَديهَتِهِ.





اِنْتَهَتْ مُغامَرَةُ ضَفْدوع التَّعيسَةُ في قاعَةِ المَحْكَمَةِ. وقَدِ اتُّهِمَ بِالقِيادَةِ المُتَهَوِّرَةِ وسَرِقَةِ سَيّارَةٍ، وفَوْقَ ذلِكَ اتُّهِمَ بِالتّطاوُلِ على رِجالِ الشُّرْطَةِ. فَحُكِمَ عَلَيْهِ بِالسَّجْنِ عِشْرينَ عامًا.

قُيِّدَتْ يَدا ضَفْدوع البائِسِ، واقْتادَهُ الحَرَسُ في شَوارِعِ البَلْدَةِ إلى سِجْنِ القَلْعَةِ الرَّهيبِ. ثُمَّ جَرَّهُ الحَرَسُ عَبْرَ مَمَرّاتِ القَلْعَةِ بَيْنَ الكِلابِ المُتَوَحِّشَةِ الَّتي كانَتْ تُحاوِلُ تَحْطيمَ أَحْزِمَتِها لِلانْقِضاضِ عَلَيْهِ. ثُمَّ اقْتيدَ نُزولًا عَبْرَ دَرَجٍ حَجَرِيٍّ مُلْتَوٍ، وأُلْقِيَ في زِنْزانَةٍ حَجَرِيَّةٍ مُعْتِمَةٍ يَجْلِسُ أَمامَ بابِها حارِسٌ.

لَمْ يَكُنْ لِضَفْدوع أَمَلٌ في الهَرَبِ مِنْ ذلِكَ السِّجْنِ المُخيفِ. وأَدْرَكَ عِنْدَئِذٍ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ إلّا مَخْلوقًا أَحْمَقَ غَبِيًّا.

راحَ يُتَمْتِمُ لِنَفْسِهِ: «أَيْنَ ذاكَ الضُّفْدَعُ الذَّكِيُّ النَّبيهُ الَّذي كانَ يَحْتَرِمُهُ أَهْلُ البَلْدَةِ كُلُّهُمْ؟ أَنا لَسْتُ إلّا مَخْلوقًا بائِسًا نالَ ما يَسْتَحِقُّهُ مِنْ قِصاصٍ!»

رَفَضَ ضَفْدوع الطَّعامَ الَّذي قَدَّمَتْهُ إدارَةُ السِّجْنِ إلَيْهِ، وجَلَسَ عَلى سَريرِهِ تَعيسًا حَزينًا، وراحَتِ الدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ.



٦ فِرارُ ضَفْدوع

كانَتِ ابْنَةُ السَّجّانِ فَتاةً رَقيقَةً لَطيفَةً تُحِبُّ الحَيَواناتِ وتَأْنَسُ بِها. فأَشْفَقَتْ عَلى ضَفْدوع، وحَمَلَتْ إلَيْهِ طَعامًا ساخِنًا وسَأَلَتْهُ أَنْ يَصِفَ لَها مَنْزِلَهُ الواسِعَ. سُرْعانَ ما عادَتْ إلى ضَفْدوع ثِقَتُهُ بِنَفْسِهِ، وراحَ يَصِفُ لَها بِكَثيرٍ مِنَ الخُيَلاءِ والتَّباهي بَيْتَهُ الواسِعَ.

أَحَسَّتِ الفَتاةُ بِالإشْفاقِ، رُغْمَ خُيَلاءِ ضَفْدوع وتَباهيهِ. آلَمَها أَنْ تَرى حَيَوانًا سَجينًا، ففَكَّرَتْ بِخُطَّةٍ تُساعِدُهُ فيها عَلى الهَرَبِ. وكانَتِ الخُطَّةُ تَقْضي بِأَنْ يَلْبَسَ ثِيابَ عَمَّتِها.

كانَتْ عَمَّتُها تَأْتي إلى السِّجْنِ مَرَّةً في الأُسْبوعِ، فتَأْخُذُ الثِّيابَ المُتَّسِخَةَ وتَغْسِلُها. وكانَتْ سَمينَةً قَصيرَةً مِثْلَ ضَفْدوع. اِعْتادَتْ أَنْ تَأْتِيَ وقَدْ حَمَلَتْ سَلَّةَ ثِيابٍ، ووَضَعَتْ عَلى رَأْسِها قُبَّعَةً واسِعَةً ولَبِسَتْ ثَوْبًا طَويلًا ولَفَّتْ حَوْلَ عُنُقِها شالًا. لَمْ تَرُقِ الفِكْرَةُ لِضَفْدوع، فإِنَّهُ لَمْ يُحِبَّ أَنْ يَتَنَكَّرَ في ثِيابِ امْرَأَةٍ عَجوزٍ فَقيرَةٍ. لكِنَّهُ اضْطُرَّ أَخيرًا إلى القَبولِ، ودَفَعَ لِلعَجوزِ بَعْضَ المالِ، ثُمَّ قَيَّدَها لِئَلّا تُتَّهَمَ بِمُساعَدَتِهِ عَلى الهَرَبِ.

راحَتِ الفَتاةُ تَبْتَسِمُ وَهِيَ تَعْقِدُ رِباطَ القُبَّعَةِ حَوْلَ عُنُقِ ضَفْدوع. لاحَظَتِ انْزِعاجَهُ فقالَتْ ضاحِكَةً: «إنَّكَ فِعْلًا تُشْبِهُها! إلى اللِّقاءِ!»



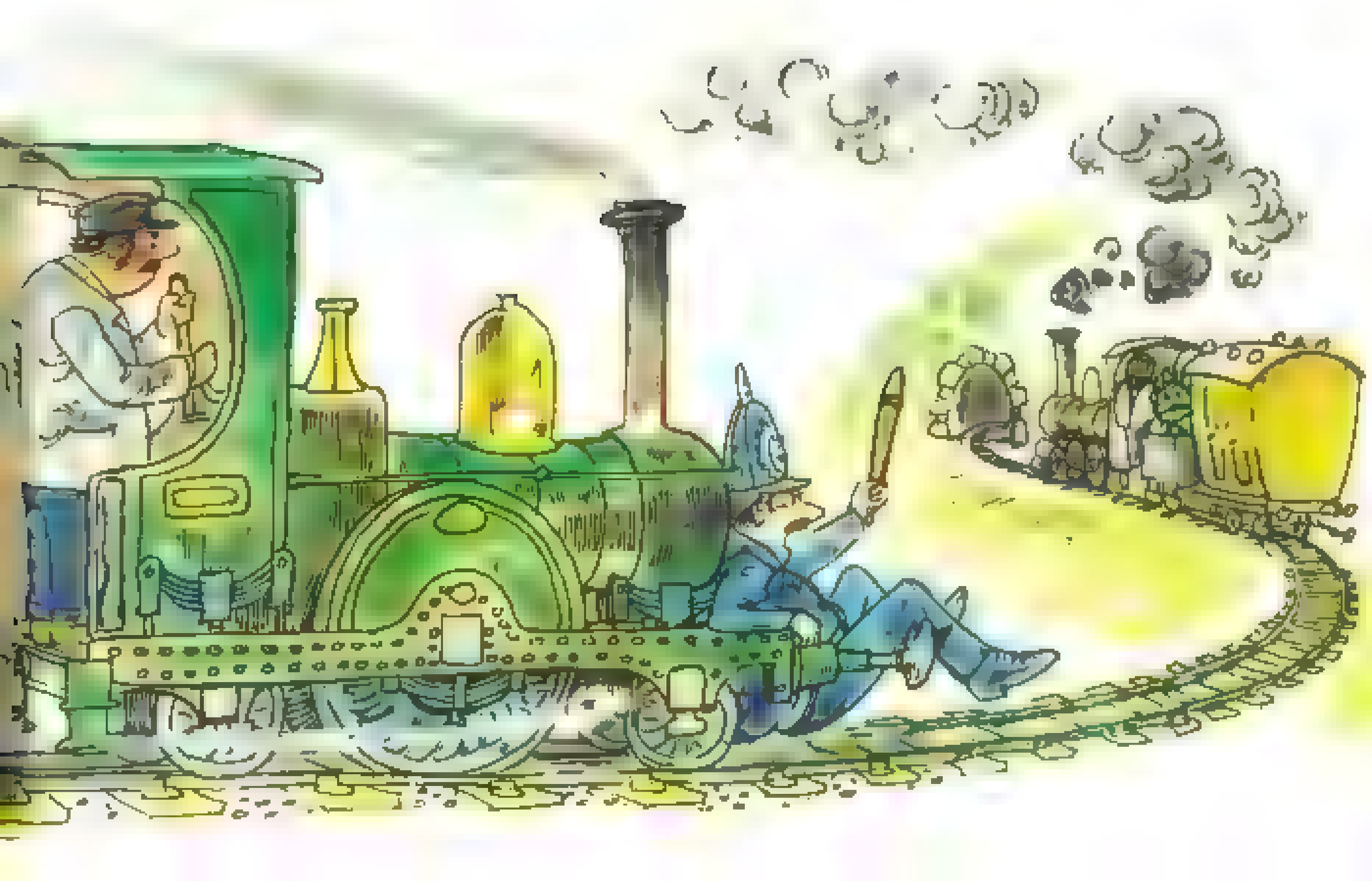
مَرَّ ضَفْدوع بِلَحَظاتٍ حَرِجَةٍ، وبِخاصَّةٍ عِنْدَما أَخَذَ الحَرَسُ يُمازِحونَ الضِّفْدَعَ الَّذي ظَنّوهُ صَديقَتَهُمُ الغَسّالَةَ. لكِنَّ الضِّفْدَعَ تَخَيَّلَ نَفْسَهُ مُمَثِّلًا بارِعًا قادِرًا عَلى خِداعِ الجُمْهورِ فَتَمالَكَ نَفْسَهُ، ومَرَّتِ التَّجْرِبَةُ بِسَلامٍ. وسُرْعانَ ما كانَ يَسيرُ طَليقًا في الطَّريقِ سَعيدًا بِالحُرِّيَّةِ وأَشِعَّةِ الشَّمْسِ.

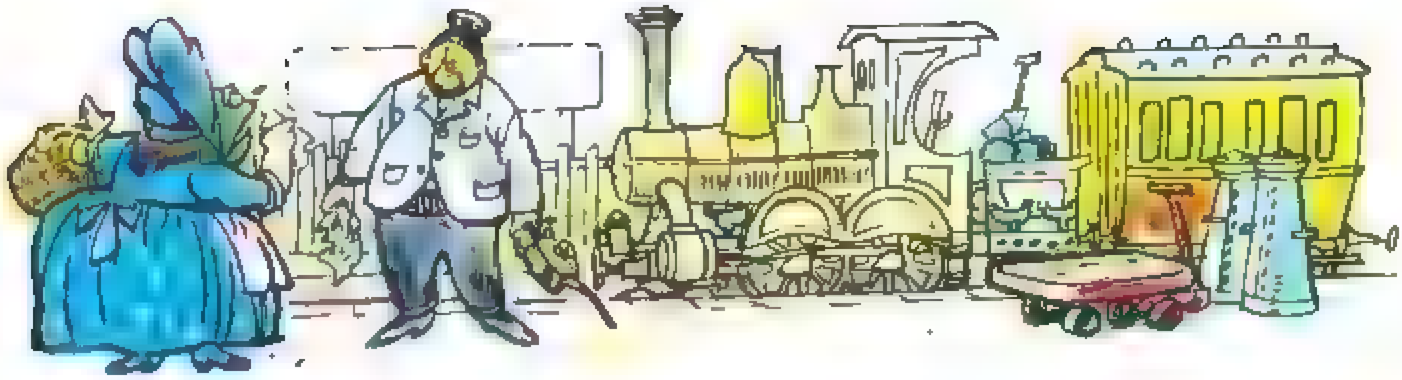
اِتَّجَهَ صَوْبَ مَحَطَّةِ القِطارِ، وكانَ يَهُمُّ بِشِراءِ تَذْكِرَةٍ عِنْدَما تَذَكَّرَ أَنَّهُ نَسِيَ مَحْفَظَةَ نُقودِهِ في زِنْزانَةِ السِّجْنِ. ماذا يَفْعَلُ الآنَ؟ ثُمَّ رَأى سائِقَ القِطارِ يُنَظِّفُ المُحَرِّكَ بِالقُطْنِ. فَاتَّجَهَ نَحْوَهُ وقالَ، مُحاوِلًا تَقْليدَ صَوْتِ عَجوزٍ:

«يا سَيِّدي، أَنا غَسّالَةٌ فَقيرَةٌ عَجوزٌ. وقَدْ أَضَعْتُ مَحْفَظَتي، فكَيْفَ أَصِلُ إلى بَيْتي وأَطْفالي؟»

أَجابَها السّائِقُ العَطوفُ: «أَيَّتُها السَّيِّدَةُ سأَسْمَحُ لَكِ بِرُكوبِ القِطارِ، وتَغْسِلينَ لي مُقابِلَ ذلِكَ بَعْضَ الثِّيابِ عِنْدَما تَصلينَ بَيْتَكِ.»

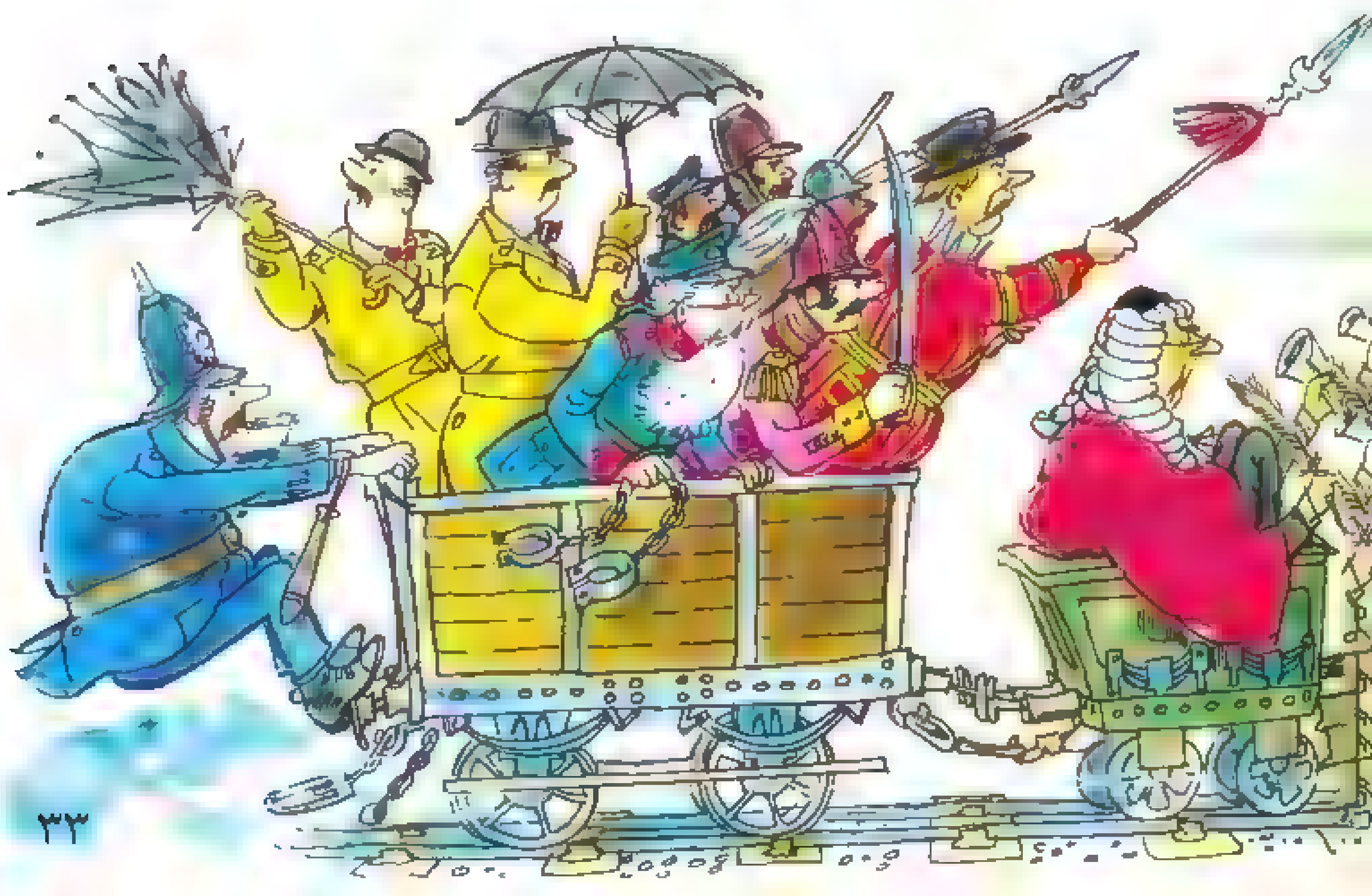
رَضِيَ ضَفْدوع بِالأَمْرِ مَسْرورًا وقَفَزَ إلى عَرَبَةِ السّائِقِ. ثُمَّ انْطَلَقَ القِطارُ وَسْطَ الصَّفيرِ وسُحُبِ الدُّخانِ.





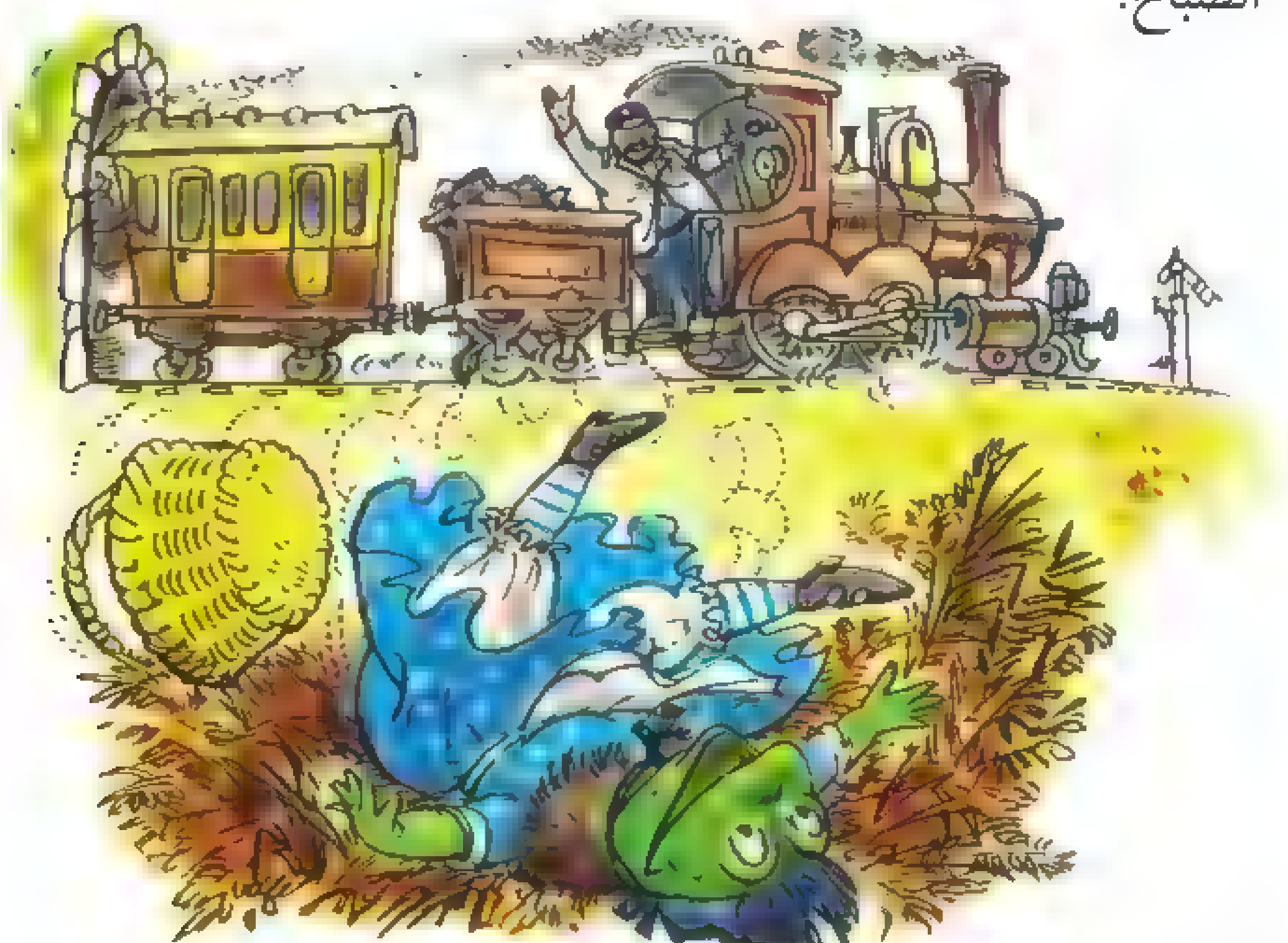
اِلْتَفَتَ السّائقُ فَجْأَةً إلى الوَراءِ وصاحَ: «إنَّ قِطارًا آخَرَ يُطارِدُنا. إنَّهُ مَمْلوءٌ بِالنّاسِ ورِجالِ الشُّرْطَةِ وحَرَسِ السِّجْنِ. والجَميعُ يَصيحونَ طالِبينَ مِنّي أَنْ أَتَوَقَّفَ.»

رَكَعَ ضَفْدوع أَمامَ السّائِقِ وقالَ مُتَوَسِّلًا: «أَنا لَسْتُ غَسّالَةً عَجوزًا. إنّني المُغامِرُ الجَريءُ المَشْهورُ السَّيِّدُ ضَفْدوع. أَرْجوكَ ساعِدْني!»



آلَمَ سائِقَ القِطارِ أَنْ يَرى رِجالَ الشُّرْطَةِ يُطارِدونَ حَيَوانًا بائِسًا، فقالَ: «لا تَخَفْ، سأُساعِدُكَ.»

دَفَعَ السّائِقُ إلى النّارِ مَزيدًا مِنَ الفَحْمِ فانْدَفَعَ القِطارُ يَنْهَبُ الأَرْضَ نَهْبًا. وسُرْعانَ ما دَخَلَ القِطارُ نَفَقًا فخَفَّفَ السّائِقُ السُّرْعَةَ. وقَفَزَ ضَفْدوع مِنَ القِطارِ، أَوَّلَ خُروجِهِ مِنَ النَّفَقِ، وراحَ يَتَقَلَّبُ بِجِسْمِهِ البَدينِ باذِلًا جَهْدَهُ في الهَرَبِ. ثُمَّ رَأى القِطارَ الثّاني يَمُرُّ مُسْرِعًا، ورَأى رِجالَ الشُّرْطَةِ وحَرَسَ السِّجْنِ يَصيحونَ مُلَوِّحينَ بِأَسْلِحَتِهِمْ طالِبينَ مِنْ سائِقِ القِطارِ الأَوَّلِ أَنْ يَتَوَقَّفَ، فأَغْرَقَ في الضَّحِكِ. اِتَّجَهَ أَخيرًا إلى شَجَرَةٍ عَتيقَةٍ فاسْتَراح ونامَ في انْتِظارِ الصَّباح.



٧ مِزْمارُ الجِنِّيِّ

كانَ أَهْلُ جِوارِ النَّهْرِ، في تِلْكَ الأَثْناءِ، مُضْطَرِبينَ قَلِقينَ. فَقَدِ اخْتَفى ابْنُ ثَعْلَبَة الصَّغيرُ. لَمْ يَكُنِ الصَّغيرُ قَدْ غابَ عَنْ بَيْتِهِ مِنْ قَبْلُ، فأَحْدَثَ غِيابُهُ المُفاجِئُ قَلَقًا، وخَرَجَتْ جماعاتٌ تُفَتِّشُ عَنْهُ. وأَصابَ القَلَقُ أَيْضًا جُرَذَ النَّهْرِ والخُلْدَ. قالَ جُرَيْذ:

«ثَعْلَبَة يُراقِبُ جانِبَ النَّهْرِ الضَّحْلَ حَيْثُ عَلَّمَ ابْنَهُ السِّباحَةَ. وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّ الصَّغيرَ سَيعودُ إلى ذلِكَ المَكانِ المُحَبَّبِ إلَيْهِ، لِذا أَقامَ هُناك يَنْتَظِرُ طَوالَ اللَّيْلِ.»

كانَ الوَقْتُ فَجْرًا. هَبَّ خَلّود وقالَ: «تَعالَ، يا جُرَيْذُ، لا أَسْتَطيعُ النَّوْمَ. عَلَيْنا نَحْنُ أَيْضًا أَنْ نُفَتِّشَ عَنِ الصَّغيرِ.»

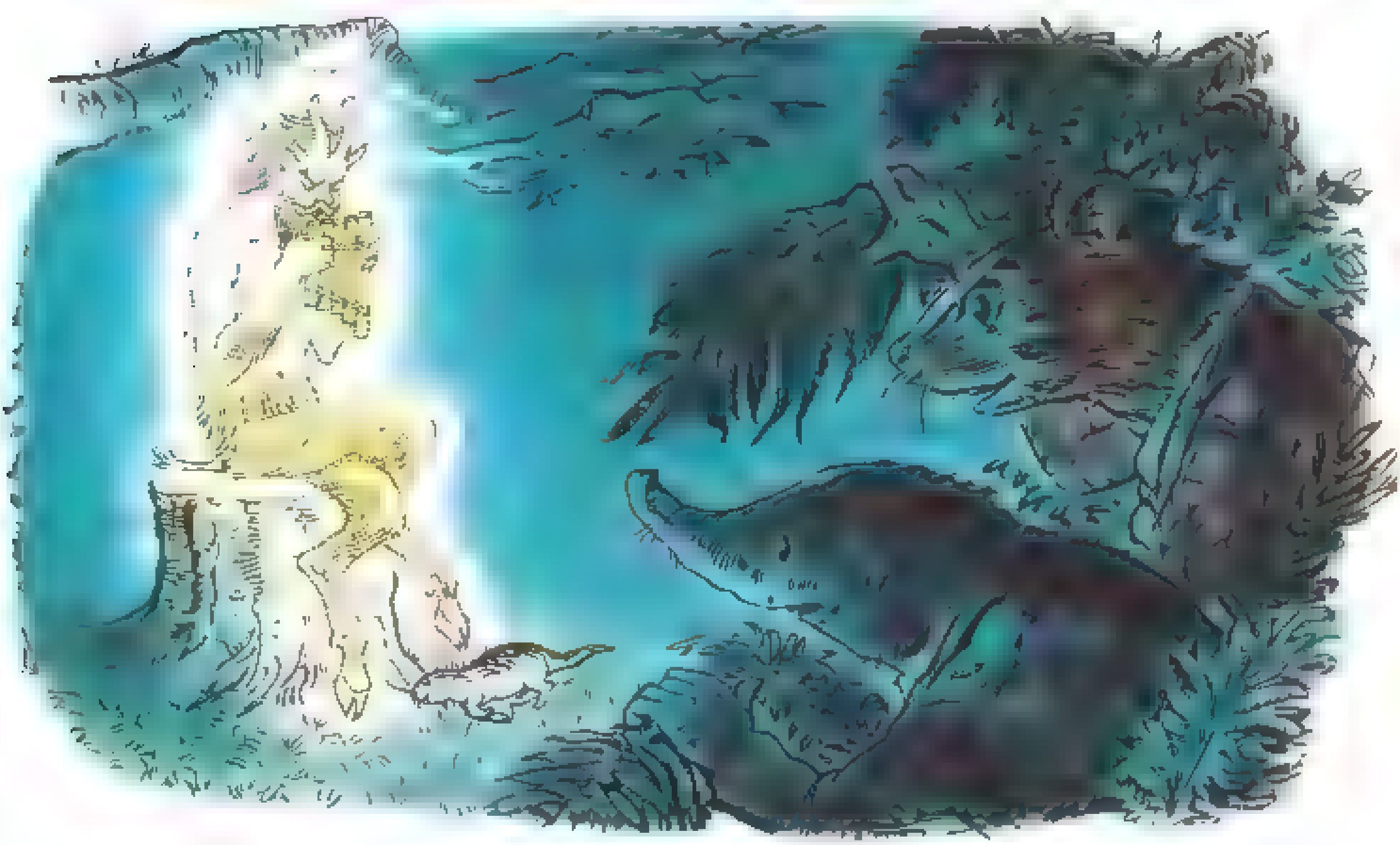
رَكِبا زَوْرَقَهُما وراحا يُجَدِّفانِ سَريعًا في ماءِ النَّهْرِ. كانَتِ الشَّمْسُ قَدْ أَخَذَتْ تُرْسِلُ أَشِعَّتَها اللَّطيفَةَ، والعَصافيرُ قَدْ شَرَعَتْ تُغَرِّدُ. وكانَ كُلُّ ما حَوْلَهُما أَخْضَرَ زاهِيًا يُوحي بِالحَياةِ والنَّشاطِ.

اِبْتَعدا في مَجْرى النَّهْرِ إلى مَكانٍ لَمْ يَعرِفاهُ مِنْ قَبْلُ، ووَصَلا إلى جَزيرَةٍ صَغيرَةٍ. ثُمَّ تَوَقَّفَ جُرَيْذ عَنِ التَّجْديفِ فَجْأَةً وقالَ:

«اِسْمَعْ! أَلا تَسْمَعُ صَوْتَ موسيقى؟» لَمْ يَكُنْ خَلّود يَسْمَعُ شَيْئًا مِنْ ذلِكَ. وكانَتْ عَيْنا جُرَيْذ تَتَأَلَّقانِ بِنورٍ غَريبٍ، وبَدا كالمَسْحورِ.

اِتَّجَهَ الصَّديقانِ بِزَوْرَقِهِما ناحِيَةَ ضَفَّةِ النَّهْرِ المُعْشِبَةِ. وهُنا وَصَلَ صَوْتُ الموسيقى إلى خَلّود أَيْضًا.

كانَ واضِحًا الآنَ أَنَّ ما يَأْتيهِما هُوَ صَوْتُ مِزْمارٍ. وبَدا كَأَنَّ الصَّوْتَ يَقودُهُما ناحِيَةَ فُسْحَةٍ بَيْنَ الأَشْجارِ. فاتَّجَها إلى هُناكَ وهُما يُحِسّانِ أَنَّهُما في حَضْرَةِ مَكانٍ مَسْحورٍ.



في الفُسْحَةِ شاهَدا جِنِّيَّ المِزْمارِ الَّذي يَحْرُسُ حَيَواناتِ الغابَةِ جالِسًا عَلى جِذْعِ شَجَرَةٍ. رَأَيا قَرْنَيْهِ ووَجْهَهُ القَوِيَّ العَطوفَ وصَدْرَهُ الأَسْمَرَ وأَطْرافَهُ العَنْزِيَّةَ. ورَأَيا عِنْدَ قَدَمَيْهِ ابْنَ ثَعْلَبَةَ الصَّغيرَ يَسْتَلْقي راضِيًا مُطْمَئِنًّا كَما يَسْتَلْقي الطِّفْلُ الرّاضي المُطْمَئِنُّ.

مَرَّتْ هذِهِ الصّورَةُ في عَيْنَي جُرَيْذ وخَلّود مُرورًا خاطِفًا ثُمَّ اخْتَفَتْ، واخْتَفى مَعَها صَوْتُ المِزْمارِ. ومَعَ اخْتِفاءِ الجِنِّيِّ ومِزْمارِهِ اسْتَفاقَ ثَعْلَبُ الماءِ الصَّغيرُ يَجْهَشُ بِالبُكاءِ ويَدورُ في المَكانِ مُفَتِّشًا عَنْ صَديقِهِ الَّذي اخْتَفى.

حَمَلَ جُرَيْذ وخَلّود ثَعْلَبَ الماءِ الصَّغيرَ إلى أَبيهِ الَّذي كانَ لا يَزالُ يَنْتَظِرُ صابِرًا عِنْدَ الجانِبِ الضَّحْلِ مِنَ النَّهْرِ. وَقَفا هُنَيْهَةً يُراقِبانِ اللِّقاءَ السَّعيدَ بَيْنَ الأَبِ وابْنِهِ، ثُمَّ عادا إلى البَيْتِ سَعيدَيْنِ بِما فَعلاهُ في ذلِكَ اليَوْمِ.

٨ مِنْ مُغامَراتِ ضَفْدوع

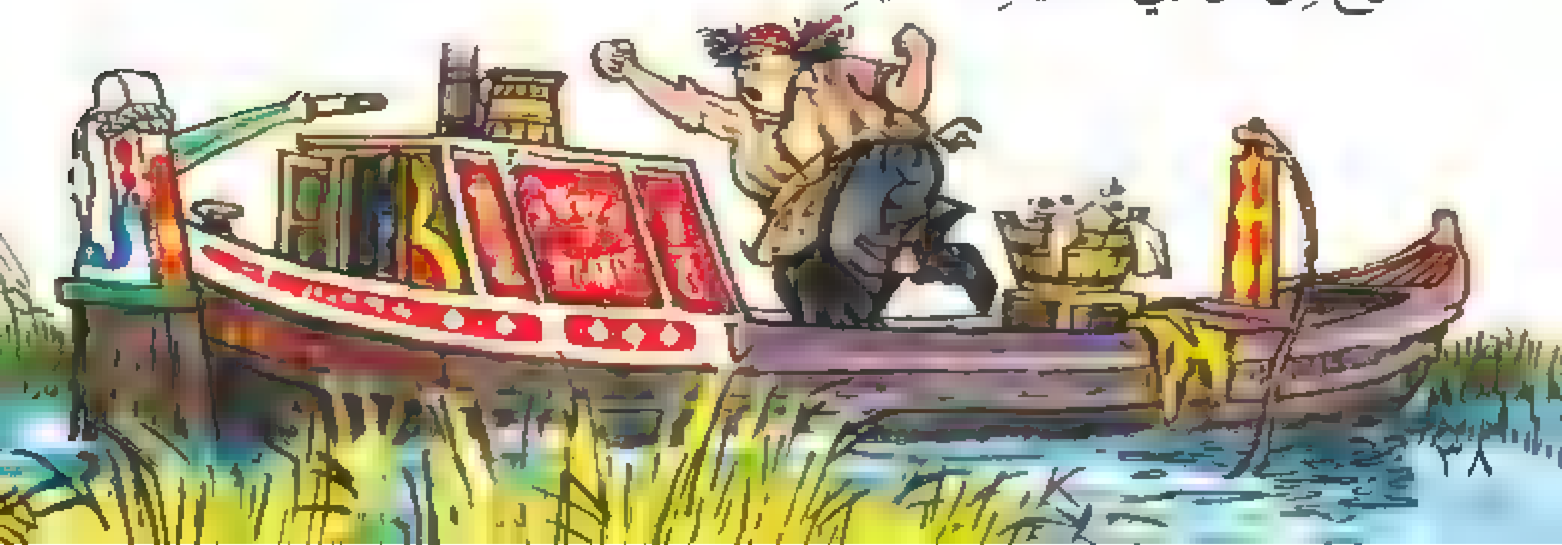
كانَ ضَفْدوع، الَّذي كانَ لا يَزالُ مُتَنَكِّرًا في ثِيابِ الغَسّالَةِ العَجوزِ، يُتابِعُ سَيْرَهُ نَحْوَ مَنْزِلِهِ. وبَيْنا هُوَ يَسيرُ بِمُحاذاةِ نَهرٍ مَرَّ جَوادٌ يَجُرُّ مَرْكَبًا نَهرِيًّا زاهِيَ الأَلْوانِ. وكانَ في المَرْكَبِ امْرَأَةٌ بَدينَةٌ تَقِفُ إلى جانِبِ الدَّفَّةِ.

وَجَدَ ضَفْدوع في ذلِكَ فُرْصَةً يَصِلُ فيها إلى بَيْتِهِ دونَ عَناءٍ. فقَصَّ عَلى المَرْأَةِ حِكايَةَ المَحفَظَةِ الضّائِعَةِ والأَطفالِ الَّذينَ يَنْتَظِرونَ أُمَّهُمْ في المَنْزِلِ. قَبِلَتِ المَرْأَةُ البَدينَةُ أَنْ تَأْخُذَ الضِّفْدَعَ المُتَنَكِّرَ في زِيِّ غَسّالَةٍ مَعَها، شَرْطَ أَنْ يَقومَ بِغَسْلِ ما مَعَها مِنْ ثِيابٍ مُتَّسِخَةٍ.



أَعْطَتْهُ المَرْأَةُ البَدينَةُ كَوْمَةً كَبيرَةً مِنَ الثّيابِ، وبَعضَ الصّابونِ ودَلْوًا كَبيرًا مِنَ الماءِ النَّظيفِ. لَمْ يَكُنْ ضَفْدوع يَعْرِفُ كَيْفَ يَبْدَأُ، فراحَ يُخَبِّطُ ويَدْعَكُ ويَفْرُكُ، ولكِنَّ الثِّيابَ ظَلَّتْ عَلى اتِّساخِها.

اِقْتَرَبَتْ مِنْهُ المَرْأَةُ البَدينَةُ وتَأَمَّلَتْ عَمَلَهُ، ثُمَّ صاحَتْ بِصَوْتٍ غاضِبٍ: «أَنت لَسْت غَسّالَةً! ما أَنْت إلّا ضِفْدَعٌ قَذِرٌ كَريهٌ - أُخْرُجْ مِنْ مَرْكَبي النَّظيفِ اللَّطيفِ!»



غَضِبَ ضَفْدوع غَضَبًا شَديدًا فَقَفَزَ مِنَ المَرْكَبِ، وفَكَّ حَبْلَ الجَوادِ ورَكِبَهُ وانْطَلَقَ بِهِ، تارِكًا المَرْأَةَ البَدينَةَ تَصْرُخُ وَتَهُزُّ قَبْضَتَها مُهَدِّدَةً مُتَوَعِّدَةً.

اِنْطَلَقَ ضَفْدوع بِالجَوادِ، مُعْجَبًا بِجُرْأَتِهِ وذَكائِهِ وسُرْعَةِ بَديهَتِهِ. أَحَسَّ في تِلْكَ الأَثْناءِ بِالجوعِ، وجاءَتْهُ رائِحَةٌ طَيِّبَةٌ زادَتْ في جوعِهِ. تَلَفَّتَ حَوالَيْهِ فَرأى غَجَرِيًّا يَشْوي أَرْنَبًا. وأَسْرَعَ ضَفْدوع يُبادِلُ الغَجَرِيَّ طَعامَهُ بِالجَوادِ الَّذي كانَ يَرْكَبُهُ. وعادَ إِلَيْهِ بَعْدَ كُلِّ ذلِكَ خُيَلاؤُهُ وادِّعاؤُهُ، فراحَ يَنْظِمُ قَصيدَةً يَمْتَدِحُ بِها نَفْسَهُ. قالَ:

فــي الــدُّنْــيــا أَبْـــطـــالٌ شُـــجْـــعــانْ،
لــكِــنّــي الأَعْـــظَـــمُ والأَشْـــجَـــعْ.
مَـــنْ مِـــنْـــهُـــمْ يَـــهْـــزَأُ بِــالــسَّــجّــانْ؟
حَـــــدِّثْ عَـــنّـــي فــأَنــا الــضِّــفْــدَعْ!

ثُمَّ سَمِعَ ضَجيجًا مَأْلوفًا.



لَقَدْ كانَتِ السَّيّارَةُ نَفْسُها الَّتي سَرَقَها ضَفْدوع وسُجِنَ لِأَجْلِها تَنْطَلِقُ عَلى الطريقِ العامِّ.

تَظاهَرَ ضَفْدوع بِالإغْماءِ، فَتَوَقَّفَتِ السَّيّارَةُ، وأَسْرَعَ الرُّكّابُ فَحَمَلوا الضِّفْدَعَ الَّذي ظَنّوهُ غَسّالَةً عجوزًا ووَضَعوهُ في السَّيّارَةِ رَيْثَما يَعودُ إلى وَعْيِهِ. لكِنْ سُرْعانَ ما غَلَبَ الإغْراءُ الضِّفْدَعَ فقالَ بِلَهْفَةٍ:

«لَقَدْ كُنْتُ دائِمًا أَتوقُ إلى قِيادَةِ سَيّارَةٍ. أَرْجوكُمْ اسْمَحوا لي أَنْ أُجَرِّبَ!» وقَدْ عَجِبَ الرُّكابُ لِتِلْكَ الغَسّالَةِ العَجوزِ الَّتي تُحِبُّ قِيادَةَ السَّيّاراتِ، فقالوا: «فَلْتُجَرِّبْ نَفْسَها.»

قادَ ضَفْدوع السِّيّارَةَ بِبُطْءٍ أَوَّلَ الأَمْرِ. ثُمَّ ما لَبِثَ أَنْ راحَ يُسْرِعُ ويُسْرِعُ! صاحَ الرُّكّابُ: «رُوَيْدَكِ، أَيَّتُها الغَسّالَةُ!»



فانْبَرى ضَفْدوع يَقولُ بِخُيَلاءَ: «أَنا لَسْتُ غَسّالَةً! أنا ضَفْدوع العَظيمُ الشَّهيرُ!» ثُمَّ راحَ يَزيدُ في سُرْعَةِ السَّيّارَةِ، مُدْخِلًا الرُّعْبَ في قُلوبِ الرُّكّابِ. أَخيرًا انْعَطَفَ بالسَّيّارَةِ انْعِطافًا حادًّا سَريعًا فانْحَرَفَتْ عَنِ الطَّريقِ ووَقَعَتْ في بِرْكَةِ ماءٍ.

قَفَزَ ضَفْدوع مِنَ السَّيّارَةِ وأَسْرَعَ هارِبًا بَيْنَ الحُقولِ، تارِكًا الرُّكّابَ غارِقينَ في بِرْكَةِ الماءِ المُوْحِلَةِ. وراحَ يُغَنّي أُغْنِيَةً أُخْرى يَمْتَدِحُ بِها نَفْسَهُ. قالَ:

أَنــــا فَـــتًّـــاكٌ فَــهِـيــمٌ
نــابِــغَــةٌ جَــمُّ الـــدَّهـــاءْ
إِنَّ لـــي رَأْيًـــا ذَكِـــيًّــا
حـــارَ فـيــهِ الأَذْكِـــيـــاءْ!

لكِنَّهُ حينَ الْتَفَتَ إلى وَراءُ رَأى سائِقَ السَّيّارَةِ ورَجُلَيْ شُرْطَةٍ يَسْعَوْنَ وَراءَهُ جاهِدينَ.





أَخَذَ ضَفْدوع المِسْكينُ يَجْري بِأَقْصى قُوَّتِهِ لاهِثًا. لكِنَّهُ كانَ بَدينًا جِدًّا، فَأَخَذَتِ المَسافَةُ بَيْنَهُ وبَيْنَ مُطارِديهِ تَضيقُ. أَحَسَّ مَرَّةً أُخْرى بِغَبائِهِ، وعَرَفَ عاقِبَةَ حُبِّ الظُّهورِ والِادِّعاءِ والخُيَلاءِ. وَصَلَ إلى ضَفَّةِ نَهْرٍ ورَمى نَفْسَهُ في الماءِ.

راحَ يَسْبَحُ بِما بَقِيَ لَهُ مِنْ قُوَّةٍ إلى أَنْ وَصَلَ إلى حُفْرَةٍ عَلى ضَفَّةِ النَّهْرِ الأُخْرى. تَعَلَّقَ بِالحُفْرَةِ ونَظَرَ في داخِلِها.

سُرْعانَ ما أَطَلَّ عَلَيْهِ مِنْ قَلْبِ الحُفْرَةِ وَجْهٌ مُسْتَديرٌ بُنِّيٌّ، ذو شارِبَيْنِ كَبيرَيْنِ وعَيْنَيْنِ مُتَأَلِّقَتَيْنِ. وكانَ ذلِكَ الحَيَوانُ صَديقَهُ جُرَذَ الماءِ.



٩ مَعْرَكَةُ مَنْزِلِ ضَفْدوع

أَعْطى جُرَيْذ صَديقَهُ الضِّفْدَعَ ثِيابًا جافَّةً وطَيَّبَ خاطِرَهُ. ثُمَّ رَوى لَهُ ما حَدَثَ في أَثْناءِ غِيابِهِ.

لقدِ اسْتَغَلَّتِ الحَيَواناتُ المُفْتَرِسَةُ في الغابَةِ غِيابَ ضَفْدوع واسْتَوْلَتْ عَلى مَنْزِلِهِ. وَيعيشُ الآنَ في المَنْزِلِ حَيَواناتُ ابْنِ عِرْسٍ وابْنِ مِقْرَضٍ والقاقُمِ، تَأْكُلُ طَعامَ ضَفْدوع وتَشْرَبُ شَرابَهُ وتَزْعُمُ أَنَّهُ لَنْ يَعودَ أَبَدًا.

هَمَّ ضَفْدوع بِالصُّعودِ فَوْرًا إلى مَنْزِلِهِ وطَرْدِ الدُّخَلاءِ. لكِنَّ جُرَذَ الماءِ أَخْبَرَهُ أَنَّ الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةَ أَقامَتْ عَلى سائِرِ الأَبْوابِ ومَنافِذِ البَيْتِ حَرَسًا مُسَلَّحًا. ولَقَدِ اسْتَكْشَفَ غَرْغور وخَلّود وَهُوَ نَفْسُهُ المَكانَ مِرارًا وتَأَكَّدَ لَهُمْ أَنْ لا سَبيلَ إلى دُخولِ البَيْتِ.

في هذِهِ اللَّحْظَةِ وَصَلَ غَرْغور وخَلّود وقَدْ بَدا عَلَيْهِما التَّعَبُ. كانَتْ ثِيابُ غَرْغور مُلَطَّخَةً بِالوَحْلِ. نَظَرَ إلى ضَفْدوع وقالَ بِتَحَسُّرٍ: «أَهْلًا بِكَ يا صَديقي المِسْكينَ! يُؤْسِفُني أَنَّ حالَتَكَ سَيِّئَةٌ هذِهِ الأَيّامَ.» ثُمَّ جَلَسَ بَعْدَ أَنْ تَناوَلَ قِطْعَةً مِنَ الحَلْوى.

أَمّا خَلّود، الَّذي كانَ فِراؤُهُ مَليئًا بِالقَشِّ، فَقَدْ راحَ يَرْقُصُ حَوْلَ صَديقِهِ الضِّفْدَعِ ويَقولُ بِسَعادَةٍ: «لَقَدْ أَفْلَتَّ إذًا، أَيُّها الذَّكِيُّ!»



أَثارَتْ هذِهِ العِبارَةُ حَماسَةَ ضَفْدوع فراحَ يَرْوي مُغامَراتِهِ لِلخُلْدِ المُعْجَبِ.

قالَ جُرَيْذ: «لا تَفْسَحْ له في مَجالِ رِوايَةِ الحِكَاياتِ، يا خَلّود، فإِنَّ عَلَيْنا أَنْ نُفكِّرَ فيما سنُقْدِمُ عَلَيْهِ.»

راحوا جَميعًا يَتحَدَّثونَ دُفْعَةً واحِدَةً. أَخيرًا أَسْكَتَهُمْ غرْغور، وتَناوَلَ قِطْعَةَ جُبْنٍ ثُمَّ قالَ:

«يا ضَفْدوع، إِنَّكَ حَيَوانٌ صَغيرٌ شَقِيٌّ مُشاغِبٌ، أَلا تَخْجَلُ مِنْ نَفْسِكَ؟ ما الَّذي كانَ يُمْكِنُ أَنْ يَقولَهُ أَبوكَ، صَديقي، لَوْ عَرَفَ بِأَفْعالِكَ المُشينَةِ؟»

أَدارَ ضَفْدوع وَجْهَهُ وأَخَذَ يَجْهَشُ بِالبُكاءِ.

تابَعَ غَرْغور كَلامَهُ قائِلًا: «لا تَبْكِ! ما فاتَ فاتَ. سأَشْرَحُ الآنَ خُطَّتي لِاسْتِرْدادِ المَنْزِلِ. إنَّ نَفقًا سِرِّيًّا-» وراحَ يَشْرَحُ لِلحَيَواناتِ المُتَلَهِّفَةِ تَفاصيلَ خُطَّتِهِ.

يَمْتَدُّ النَّفَقُ السِّرِّيُّ إلى داخِلِ المَنْزِلِ حَيْثُ يَنْتَهي في غُرْفَةٍ مُجاوِرَةٍ لِغُرْفَةِ الطَّعامِ. وكانَتْ سَتُقامُ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ وَليمَةُ عَشاءٍ احْتِفالًا بِعيدِ ميلادِ زَعيمِ بَناتِ عِرْسٍ. وسَتَكونُ الحَيَواناتُ المُفْتَرِسَةُ جَميعُها في القاعَةِ تَتَناوَلُ طَعامَها وتَمْرَحُ، ما عَدا نَفَرًا قَليلًا مِنَ الحَرَسِ عِنْدَ مَداخِلِ المَنْزِلِ.

سَيَزْحَفُ غَرْغور وجَماعَتُهُ عَبْرَ النَّفَقِ مُزَوَّدينَ بِأَسْلِحَةٍ كَثيرَةٍ، ثُمَّ يَنْقَضّونَ عَلى الحَيَواناتِ المُفْتَرِسَةِ عَلى حينِ غِرَّةٍ.

كانَ عِنْدَ غَرْغور كَوْمَةٌ مِنَ الأَسْلِحَةِ قامَ جُرَيْذ بِتَوْزيعِها عَلى الَّذينَ سيَقومونَ بِالهُجومِ.

ثُمَّ تَناوَلوا طَعامَ العَشاءِ. وانْتَظَروا حُلولَ مَوْعِدِ الهُجومِ. هَبَطَ الظَّلامُ، فَحَمَلَ كُلٌّ مِنْهُمْ أَسْلِحَتَهُ، واتَّجَهوا ناحِيَةَ النَّفَقِ السِّرِّيِّ. وكانَ غَرْغور يَسيرُ في أَوَّلِ المَوْكِبِ حامِلًا مَعَهُ عَصًا غَليظَةً.

كانوا يَتَوَقَّفونَ بَيْنَ الحينِ والحينِ لِشِدَّةِ الظَّلامِ. وكَثيرًا ما كانوا يَصْطَدِمونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ. وقَدْ أَفْزَعَ الظَّلامُ الضِّفْدَعَ الَّذي كانَ يَسيرُ في آخِرِ المَوْكِبِ. وسُرْعانَ ما أَخَذَتْ أَصْواتُ الحَفْلَةِ الصّاخِبَةِ تَصِلُ إِلَيْهِمْ.

قالَ غَرْغور: «الآنَ، أَيُّها الشُّجعانُ!» ثُمَّ خَرَجوا مِنَ النَّفَقِ إلى الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ لِغُرْفَةِ الطَّعامِ، وسَمِعوا زَعيمَ بَناتِ عِرْسٍ يُلْقي خِطابًا:

«أَوَدُّ أَنْ أُوَجِّهَ إلى مُضيفِنا ضَفْدوع كَلِمَةً - ضَفْدوع الهادِئِ! ضَفْدوع المُتَواضِعِ! ضَفْدوع الصّادِقِ!» وراحَ كُلُّ مَنْ في الحَفْلَةِ يَضْحَكُ.





ثُمَّ تابَعَ الزَّعيمُ خِطابَهُ قائِلًا: «لَقَدْ أَلَّفْتُ عَنْهُ جَزاءَ كَرَمِهِ أُغْنِيَةً!» وراحَ يُغَنّي بِصَوْتِهِ القَبيحِ أُغْنِيَةً بَغيضَةً، يَسْخَرُ فيها مِنْ ضَفْدوع ووَلَعِهِ بالسَّيّاراتِ ووُقوعِهِ في السِّجْنِ.

قالَ ضَفْدوع: «سأُمَزِّقُهُ!»

وصاحَ غَرْغور: «الآنَ!» وانْدَفَعَ أَرْبَعَتُهُمْ إلى قاعَةِ الطَّعامِ مُشْهِري السِّلاحِ.

دَبَّ الذُّعْرُ في بَناتِ عِرْسٍ فراحَتْ تَصيحُ وتَتَراكَضُ طالِبَةً النَّجاةَ.

حاوَلَتْ بَناتُ عِرْس الِاخْتِباءَ تَحْتَ المائِدَةِ، وأَسْرَعَتْ بَناتُ مِقْرَضٍ إلى المِدْفَأَةِ وعَلِقَتْ في المِدْخَنَةِ.

راحَ غَرغور الجَبّارُ يَضْرِبُ بِعَصاهُ يَمينًا ويَسارًا. وصاحَ خَلّود صَيْحَةَ مُحارِبٍ: جاءَكُمُ الخُلْدُ! جاءَكُمُ الخُلْدُ!» ولَوَّحَ جُرَيْذ بِمُسَدَّسِهِ. أَمّا ضَفْدوع فقَدْ نَفَخَ صَدْرَهُ إلى أَقْصى ما يَسْتَطيعُ واتَّجَهَ نَحْوَ زَعيمِ بَناتِ عِرْسٍ.

أَخيرًا خَلَتِ القاعَةُ لِلمُهاجِمينَ الأَرْبَعَةِ، بَعْدَ أَنْ فَرَّتِ الحَيَواناتُ المُفْتَرِسَةُ عائِدَةً إلى الغابَةِ، ما عَدا عَدَدًا قَليلًا مِنْها زَوَّدَها الخُلْدُ بِمَكانِسَ وأَمَرَها أَنْ تُنَظِّفَ المَنْزِلَ وتُرَتِّبَهُ.





١٠ عَوْدَةُ الجَوّالِ التّائِهِ

أَرادَ ضَفْدوع في صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي أَنْ يَدْعُوَ أَصْحابَهُ وجيرانَهُ إلى مَأْدُبَةِ عَشاءٍ احْتِفالًا بِعَوْدَتِهِ إلى المَنْزِل. أَقامَ صَباحَهُ يُعِدُّ بَرْنامَجًا حافِلًا. فأَعَدَّ أَغانِيَ يُغَنّيها هُوَ، وخُطَبًا يُلْقيها هُوَ عَنْ «نِظامِ السِّجْنِ» و «سِياسَةِ الخَيْلِ» وما يُشْبِهُ ذلِكَ مِنْ مَوْضوعاتٍ.

عِنْدَما رَأى أَصْحابُهُ ما أَعَدَّ لَهُمْ مِنْ بَرْنامَجٍ قالوا لَهُ: «عَلَيْكَ يا ضَفْدوع أَنْ تَنْسى حُبَّكَ لِلظُّهورِ والتَّباهي نِهائِيًّا».

«لا خُطَبَ إذًا؟»

«لا خُطَبَ!»

«ولا حَتّى أُغْنِيَةً واحِدَةً صَغيرَةً؟»

«ولا حَتّى أُغْنِيَةً واحِدَةً صَغيرَةً!»

رَأى ضَفْدوع المِسْكينُ أَنْ لَيْس أَمامَهُ إلّا أَنْ يَعِدَ بِالاِبْتِعادِ عَنْ حُبِّ الظُّهورِ والتَّباهي. لكِنَّهُ ذَهَبَ إلى غُرْفَةِ نَوْمِهِ ونَظَرَ في المِرْآةِ فَرَأى أَنْ يُغَنّيَ أَمامَ المِرْآةِ أُغْنِيَةً أَخيرَةً يَمْتَدِحُ بِها نَفْسَهُ. والأُغْنِيَةُ هِيَ:

أَنــــا فَــتّـــانٌ جَـمـيـلُ مَــنْ يُـدانيـنـي جَـمـالا؟
كُـــلُّ مـا قُـلْـتُـمْ قَـلـيـلُ مَـنْـظَـري فــاقَ الـخَـيـالا

* * *

إنّ لـي صَـوْتًـا بَـديـعـا طــارَ فـي كُـلِّ الـدِّيـارْ
فـاسْـمَـعـوا صَـوْتـي جَـمـيـعـا غــارَ مِـنْ صَـوْتـي الـكَـنـارْ

* * *

أَيُّـهـا الـسّـائِـلُ عَـنّـي إنّـنـي، لا فَـخْـرَ، ضِـفْـدَعْ
إنَّ مِــنْ بــابِ الـتَّـمَـنّـي أَنْ تَـرى فـي الـنّـاسِ أَرْوَعْ

* * *

عُــدْتُ لِـلـبَـيْـتِ أَخـيـرًا بَــعْــدَ تَــجْــوالٍ كَـثـيـرْ
فـافْـرُشـوا الأَرْضَ حَـريـرا عـــادَ لِـلـبَـيْـتِ الأَمـيـرْ

* * *

غَنّى ضَفْدوع أُغْنِيَتَهُ الأَخيرَةَ بِصَوْتٍ عالٍ وبِإِحْساسٍ قَوِيٍّ. وعِنْدَما وَصَلَ إلى نِهايَتِها عادَ وبَدَأَ يُغَنّيها مِنْ جَديدٍ. وفَعَلَ ذلِكَ مَرّاتٍ. أَخيرًا عادَ إلى أَصْدِقائِهِ. وقَدْ رَفَضَ في الحَفْلَةِ أَنْ يَنْسُبَ الفَضْلَ في الاِنْتِصارِ إلى نَفْسِهِ، وقالَ بِتَواضُعٍ: «إِنَّها فِكْرَةُ غَرغور. وقَدْ قامَ جُرَيْذ وخَلّود بالعِبْءِ الأَكْبَرِ مِنَ القِتالِ.» نَظَرَ جُرَيْذ وخَلّود واحِدُهُما في وَجْهِ الآخَرِ مُنْدَهِشَيْنِ. أَخيرًا تَغَيَّرَ ضَفْدوع!

أَرْسَلَ ضَفْدوع إلى كُلٍّ مِنِ ابْنَةِ السَّجّانِ وسائِقِ القِطارِ رِسالَةَ شُكْرٍ وهَدِيَّةً. وأَرْسَلَ لِلمَرْأَةِ البَدينَةِ ثَمَنَ الجَوادِ الَّذي أَخَذَهُ مِنْها. ولَمْ يُرْسِلْ لِلغَجَرِيِّ شَيْئًا لِأَنَّ الغَجَرِيَّ كانَ الرّابِحَ في الصَّفْقَةِ الَّتي عَقَدَها مَعَهُ.

كانَ الأَصْحابُ الأَرْبَعَةُ كَثيرًا ما يَتَنَزَّهونَ صَيْفًا في الغابَةِ. وكَثيرًا ما كانَتْ أُمَّهاتُ بَناتِ عِرْسٍ تُخَوِّفُ الأَشْقِياءَ مِنْ صِغارِها بِغَرْغور الضَّخْمِ. ولَمْ يَكُنْ ذلِكَ مِنَ العَدْلِ في شَيْءٍ، فَغَرْغور يُحِبُّ الصِّغارَ، لكِنَّ التَّخْويفَ بِهِ كانَ دائِمًا يُعْطي ثِمارَهُ.



تَسْعى مَكْتَبَة لُبْنان مِنْ خِلالِ هَذِهِ السِّلْسِلَةِ إلى تَعْريفِ الفَتى العَرَبِيِّ بِروائِعِ الأَدَبِ العالَمِيِّ، وإعْدادِهِ لِلدُّخول، فيما بَعْدُ، في عالَمِ القِصَصِ الخالِدَةِ مِنْ بابِهِ الواسِعِ. إنَّنا نَعْتَقِدُ أَنَّ مِنْ حَقِّ أَبْنائِنا أَنْ يُكَوِّنوا فِكْرَةً صَحيحَةً شامِلَةً عَنْ نِتاجِ القِصَصِ الذّائِعَةِ الصّيتِ في مُخْتَلِفِ أَنْحاءِ الأَرْضِ.

عَلى أَنَّنا نَثِقُ أَنَّ هَذِهِ القِصَصَ تَصْلُحُ، بِالشَّكْلِ الَّذي نُقَدِّمُها فيه، لِلْكِبارِ أَيْضًا، لِأَنَّنا حَرِصْنا عَلى أَلّا نَنْتَقِصَ مِنْ جَوْهَرِ الفِكْرَةِ الَّتي يَقومُ عَلَيْها العَمَلُ ومِنْ بناءِ الشَّخْصِيّاتِ كما أَرادَها المُؤَلِّفونَ.

وحَرِصْنا عَلى المُحافَظَةِ عَلى عَناوينِ الكُتُبِ الأَصْلِيَّةِ وكَذَلِكَ عَلى أَسْماءِ الأَعْلامِ والأَماكِنِ، كَما وَرَدَتْ في الأَصْلِ، رَغْبَةً في إعْطاءِ صورَةٍ حَقيقِيَّةٍ عَنِ الجَوِّ العامِّ لِلْقِصَصِ، مِنْ حَيْثُ المَكانُ والأَوْضاعُ الاجْتِماعِيَّةُ والأَحْداثُ التاريخِيَّةُ، وخِدْمَةً لِلْهَدَفِ الَّذي نَسْعى إلَيْهِ وهُوَ تَمْهيدُ الطَّريقِ لِلتَّعَرُّفِ إلى الأَدَبِ العالَمِيِّ. عَلى أَنَّنا

تَجَنَّبْنا الخَوْضَ في تَفاصيلِ الأَسْماءِ الَّتي لا تَتَعَلَّقُ مُباشَرَةً بِصُلْبِ المَوْضوعِ ولا تُؤَثِّر عَلى سَيْرِ الأَحْداثِ، وذلِكَ لِكَيْ لا نُرْبِكَ القارِئَ العَرَبِيَّ بأَسْماءٍ ثانَوِيَّةِ الأَهَمِّيَّةِ، غَريبَةِ اللَّفْظِ قَليلَةِ التَّواتُرِ.

وتَمْتازُ هَذِهِ القِصَصُ كُلُّها بِأَنَّها شَديدَةُ التَّشْويقِ، وتَقومُ في غالِبِها عَلى المُغامَراتِ المُثيرَةِ. وأَكْثَرُ هذِهِ القِصَصِ المُخْتارَةِ كُتِبَتْ أَصْلًا لِتُرضِيَ جُمْهورَ الشَّبابِ، وَهِيَ مِنْ هَذِهِ النّاحِيَةِ تُرْضي مَشاعِرَهُمْ ومَبادِئَهُمْ وحُبَّهُمْ لِلانْطِلاقِ واكْتِشافِ المَجْهولِ.

إنَّ هَذِهِ القِصَصَ جَميعَها، وإنْ تكُنْ في غالِبِها تَقومُ عَلى حُبِّ المُغامَرَةِ، تَتَناوَلُ أَصْدَقَ المَشاعِرِ الإنْسانِيَّةِ، وتُصَوِّرُ كِفاحَ الإنْسانِ لِتَحْقيقِ مُثُلِهِ العُلْيا دونَ أنْ يَعْبَأَ بالتَّضْحِياتِ.

وزُوِّدَتْ كُتُبُ السِّلْسِلَةِ جَميعُها بِمُقدِّماتٍ تُعَرِّفُ بالمُؤَلِّفِ كما زُوِّدَتْ بِرُسومٍ مُلَوَّنَةٍ رائِعَةٍ تُضْفي جَوًّا مِنَ السِّحْرِ على أَحْداثِ القِصَصِ، وتُصَوِّرُ الخَلْفِيّاتِ الاِجْتِماعِيَّةَ والتارِيخِيَّةَ أَصْدَقَ تَصْويرٍ.

طُبع في إنجلترا ١٩٨٤



01C131812